السكاكي

المُفتَرَى عليه

د / عبد المنعم السيد الشحات رزق

أستاذ البلاغة والنقد المساعد ،

ورئيس القسم بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

بدمياط الجديدة

السكاكي المفترى عليه

عبد المنعم السيد الشحات رزق

قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدمياط الجديدة

البريد الإلكتروني : Abdelmoneimrizk.33@azhar.edu.eg

الملخص :

هذه الصفحات القليلة سنجعلها لأحدهما، هو العلامة صاحب (مفتاح العلوم)، وهذا البحث عنوانه: (السكاكي المُفترَى عليه).

سنقرأ كتاب (المفتاح)، ونُجيب بعدها على عدّة أسئلة يطرحها البحث.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في أحد عشر فصلاً، يجيب كل فصل فيه عن سؤال يطرحه _ في إيجاز، وذلك بعد تمهيد نُعرّف فيه بالسكاكي في إيجاز.

التمهيد: التعريف بالسكاكي وكتابه في إيجاز، وفيه:

١_ كلمة موجزة عن (السكاكي) وكتابه.

٢_ تقديم وتوضيح وإنصاف للسكاكي وكتابه.

الفصل الأول: منهج السكاكي في كتابه ونقده

الفصل الثاني: نقد أسلوب (السكاكي) في كتابه

الفصل الثالث: إهمال (السكاكي) للذوق، وعدم الاعتماد عليه في كتابه

الفصل الرابع: السياق ومقتضى الحال، وعدم الاعتماد عليهما عند السكاكي

الفصل الخامس: تقعيد البلاغة، وحصرها في قوالب جافة

الفصل السادس: قلة الشواهد البلاغية عند السكاكي، واعتماده في كتابه على الأمثلة المصنوعة

الفصل السابع: تذييل البديع علوم البلاغة لأنه عرضي

الفصل الثامن: السكاكي والإعجاز القرآني

الفصل التاسع: النظم القرآني في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي

الفصل العاشر: إنكار السكاكي للمجاز العقلي

الفصل الحادي عشر: إهمال (السكاكي) التفرقة بين الفصاحة والبلاغة

الكلمات المفتاحية: السكاكي – البلاغة –التفتازاني–عبد القاهر – مفتاح العلوم – الحواشي – الخطيب القزويني – العصام – تلخيص المفتاح

Al-Sakaki Al-Fattara

Abdul Moneim Al-Sayyid Al-Shahat Rizk

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arab Studies for Boys in New Damietta

E-mail: Abdelmoneimrizk.33@azhar.edu.eg

Abstract :

We will read the book (The Key), and then answer several questions asked by the research.

The nature of this research required that it be in eleven chapters, in which each chapter answers a question it poses _ in a nutshell, after a preamble in which we are known as al-Sakkaki in a brief.

Introduction Sakaki and writing it briefly, in which:

1 _A short word about (Al Sakaki) and his book.

2 _Provide, clarify and fairly to Sakaki and his book.

Chapter 1: Al-Sakaki's Approach in His Book and Criticism

2 Chapter Two: Criticism of the (Sakaki) style in his book

Chapter 3: Negligence of Sakaki and lack of dependence on it in his book

4 Chapter Four: The Context and the Required Case, and Not Using Both of them in Sakaki

Chapter 5: Restricting eloquence and confining it to dry molds

6 Chapter Six: Lack of rhetorical evidence of al-Sakaki and his reliance on patterns made

7 Chapter Seven: Appendix of Al-Badi`i, Science of Rhetoric, because it is accidental

8 Chapter Eight: Sacred and Quranic Miracles

Chapter 9: The Quranic Systems in the book “The Key to Science” for Sakaki

Chapter 10: Skaki's denial of mental metaphor

11 Chapter Eleven: Negligence (Sakaki), the distinction between eloquence and rhetoric

Keywords: Sakaki, Rhetoric, Taftazani, Abdul Qahir, Science Key, Footnotes, Al-Khatib Al-Qazwini, Al-Issam, Key Summary

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على خير خلق الله، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد،

فإذا أمسكتَ بالقلم لتكتب عن العلامة (السكاكي)، صاحب كتاب (مفتاح العلوم)، فاعلم أنك تسير عكس التيار، وتدافع عن عالم يكاد يُجمِع أكثر البلاغيين على جنايته بالبلاغة، وأنه السبب الرئيس فيما وصلت إليه – على حد قولهم.

واعلم أنك مهما تسلحت بالقراءة والاطلاع، فإنك تدافع عن عالم حكم عليه كثيرون – دون أن يقرأوا كتابه – أنه مخطئ لا محالة، وهم لا يدرون ولا يعرفون، ولا يدرون أنهم لا يدرون، أنهم أمام عالم وأديب وناقد وبلاغي قد أسلمت له البلاغة أزمتها، وأسلست له قيادتها؛ حتى أصبحت بين أنامله لينة مطواع، هم لا يعرفون، ويعرفون أنهم لا يعرفون، لكنه النقد لمجرد النقد.

إذا فكرتَ لمجرد التفكير في الدفاع عن (السكاكي)، فستسمع وستقرأ ما لا يعجبك ولا يسرك.

لقد نجح بعض البلاغيين – وهم كثر – في تنفير جيل بأكمله من (السكاكي)، وآرائه وأسلوبه وبلاغته.

ليس عليك سوى أن تنطق اسم (السكاكي) فحسب، وبعدها ستجد من يدري ومن لا يدري يتهم (السكاكي) ويكيل له الاتهامات من كل جانب.

من قرأ للسكاكي، ومن قرأ عن (السكاكي)، ومن لم يقرأ عن (السكاكي)، الكل سواء، فقط ما عليك إلا أن تذكر اسم (السكاكي)، ثم كن مستعدًّا بعدها لتلقي الاتهامات.

اتهم بعض البلاغيين العلامة (السكاكي) أنه أفسد بلاغة الشيخ (عبد القاهر)، وقضى عليها، ونسي هؤلاء أو تناسوا أنه لولا العلامة (السكاكي) وكتابه (مفتاح العلوم) لما عرفنا (عبد القاهر)، ولما اطلعنا على ما كتبه الشيخ (عبد القاهر)، ولما قيّمنا عمله وأدركنا جهده.

كان العلامة (السكاكي) بكتابه صاحب الفضل في إبراز جهد الشيخ (عبد القاهر) وأثره البلاغي، ولولا كتاب (مفتاح العلوم) لضاع جهد الشيخ، لكنّ تقنين (السكاكي) _إذا صح التعبير_ حافظ على بلاغة الشيخ من الضياع.

ليس هذا فحسب، بل إن أثر الشيخ (عبد القاهر) وكتابيه في (مفتاح العلوم) ظاهرٌ غير مستتر، ولم ينكره (السكاكي)، بل ألفيناه دائمًا يستشهد بما قاله ويفتخر بما نقله عنه.

لم ينكر العلامة (السكاكي) أثر الشيخ (عبد القاهر) على كتابه وبلاغته، بل نراه دائمًا يشيد بالشيخ وكتابيه، لكنه مع ذلك كان هذا الأثر سيضيع لولا أن (السكاكي) بكتابه قد حفظه من الضياع.

لم يترك البلاغيون شيئًا إلا واتهموا به (السكاكي)، ولست أدري سببًا واحدًا يفسر هذه الهجمة على كتاب (السكاكي).

فإذا قلنا: إن الشيخ (محمد عبده) ومدرسته، أمثال الشيخ (علي عبد الرازق) صاحب كتاب أمالي عبد الرازق ، والشيخ (الصعيدي)،

والشيخ (المراغي)، والدكتور (مطلوب)، وغيرهم قد هاجموا (السكاكي)؛ لأنهم يميلون إلى ما كتبه الشيخ (عبد القاهر)، فقسموا البلاغة إلى مدرستين، (مدرسة عبد القاهر، ومدرسة السكاكي).

= أقول: إذا صح ذلك، فلِم هاجمه ونقده أصحاب مدرسته، مثل (التفتازاني، وعبد الحكيم، والسيد الشريف)، وغيرهم.

ولعل العجيب والغريب هو نقد شراح المفتاح أنفسهم، وهجومهم عليه، كالشيرازي وطاش كبرى زاده والتفتازاني.

اتهم كل هؤلاء العلامة (السكاكي) ونقدوه، ولعل سبب ذلك يرجع إلى عدة أمور:

١_ أكثر من اتهم (السكاكي) لم يقرأ له، وإنما قرأ عنه، والفرق واضح.

٢_ حاول بعض من اتهم (السكاكي) _وهم كثر، تأييد الشيخ (عبد القاهر) في كل ما ذهب إليه، ولم يجدوا من يضارعه سوى (السكاكي) ومدرسته؛ فاعتقدوا _ مخطئين _ أن هدم (السكاكي) ومدرسته هو انتصار للشيخ (عبد القاهر) ومدرسته، ولكنهم لم يفلحوا، ولن يفلحوا؛ لأن الشيخ (عبد القاهر) وكذا (السكاكي) لم يؤلف أحدهما في البلاغة تأليفًا مباشرًا، حتى نزعم الموازنة بينهما، وإن كان ما كتبه (السكاكي) في القسم الثالث من المفتاح أقرب إلى التأليف البلاغي منه عن ما كتبه الشيخ الإمام.

على أنه يجب التنبيه إلى أن الشيخ (عبد القاهر)، وكذا (السكاكي) لم يؤلفا في البلاغة؛ فالسكاكي لم يسم كتابه (مفتاح البلاغة)، وإنما سماه (مفتاح العلوم) _على ما سيأتي.

أقول: أكثر من أتى بعد (السكاكي) هاجمه دون أن يكلف نفسه أن يقرأ كتابه العظيم، حتى يحكم له أو عليه.

ولم أجد أحدًا ظُلِم واتهم باطلاً، كما هو الحال عند (السكاكي)، وكذا (ابن سنان الخفاجي) في كتابه (سر الفصاحة).

فكل منهما له جهد عظيم، وأثر واضح في التأليف البلاغي، لكنّ يد الإهمال والنقد الهدام طالتهما، ومع ذلك نجد شَبهًا واضحًا بين الكتابين، ومع أن أحدهما لم يؤلف في البلاغة، لكنّ (الخفاجي) و(السكاكي) بدأ كل منهما كتابه بالحديث عن الصوت ،ثم الحرف ،ثم الجملة والتركيب، وإن من يقرأ الكتابين بقليل من الإنصاف سيدرك ذلك لأول وهلة.

وهذه الصفحات القليلة سنجعلها لأحدهما، هو العلامة صاحب (مفتاح العلوم)، وهذا البحث عنوانه: (السكاكي المُفترَى عليه).

سنقرأ كتاب (المفتاح)، ونُجيب بعدها على عدّة أسئلة يطرحها البحث.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في أحد عشر فصلاً، يجيب كل فصل فيه عن سؤال يطرحه _ في إيجاز، وذلك بعد تمهيد نُعرّف فيه بالسكاكي في إيجاز.

التمهيد: التعريف بالسكاكي وكتابه في إيجاز، وفيه:

١_ كلمة موجزة عن (السكاكي) وكتابه.

٢_ تقديم وتوضيح وإنصاف للسكاكي وكتابه.

الفصل الأول: منهج السكاكي في كتابه ونقده

الفصل الثاني: نقد أسلوب (السكاكي) في كتابه

الفصل الثالث: إهمال (السكاكي) للذوق، وعدم الاعتماد عليه في كتابه

الفصل الرابع: السياق ومقتضى الحال، وعدم الاعتماد عليهما عند السكاكي

الفصل الخامس: تقعيد البلاغة، وحصرها في قوالب جافة

الفصل السادس: قلة الشواهد البلاغية عند السكاكي، واعتماده في كتابه على الأمثلة المصنوعة

الفصل السابع: تذييل البديع علوم البلاغة لأنه عرضي

الفصل الثامن: السكاكي والإعجاز القرآني

الفصل التاسع: النظم القرآني في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي

الفصل العاشر: إنكار السكاكي للمجاز العقلي

الفصل الحادي عشر: إهمال (السكاكي) التفرقة بين الفصاحة والبلاغة

وبعد، فلعل هذه الصفحات تجيب عن بعض الأسئلة والاتهامات التي وُجهت للعلامة (السكاكي)، وكتابه القيم (مفتاح العلوم).

على أني قمتُ بقراءة كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي قراءة جيدة؛ حتى يتسنى لي الإجابة على هذه الأسئلة، وتبرئة (السكاكي) من التهم التي وُجهت إليه.

وكنت قبل ذلك عكفت على كتاب (مفتاح العلوم)، لقراءته وتفسير غامضه، وشرح ما أجمله (السكاكي)، وتوضيح ما غمض في كتابه، بعد التسلح بالقراءة عدة سنوات في الشروح والحواشي، وبعد أن قمت بتحقيق رسالة الدكتوراه، في كتاب (الأطول)، لعصام الدين الإسفراييني، في ثمانية مجلدات .

وقد أفدتُ كثيرًا حين حققت هذا الكتاب القيم الذي أنصف فيه العصام العلامة السكاكي كثيرا فيما اتهم به وفيما أخذه عليه القزويني والتفتازاني ، بعد أن قابلته على ست نسخ مخطوطة، وقد استغرق تحقيقه وقراءته رِدحًا من الزمن.

ولذا فقد قمت بإعادة قراءة كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، وحتى تكتمل الفائدة قمت بوضع شرح له بعنوان: (قراءة جديدة في فكر الإمام السكاكي)، استطعت من خلالها _وبعد معايشة كتاب المفتاح_ أن أصِل إلى حقيقة لا مفر من ذكرها، وهي أن العلامة (السكاكي) قد ظُلِم، ولعل أشد أنواع الظلم التي تعرض لها صاحب المفتاح، هي:

١_تحميل نصوص كلامه دلالات لا يتحملها.

٢_نسبة بعض الآراء إليه، ولم يقل بها.

وغيرها كثير من الاتهامات التي وُجهت إليه _دون وجه حق_ في كتابه، على ما سيأتي بالتفصيل.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

د/عــبد المنعــم رزق

التمهيد:

التعريف بالسكاكي وكتابه في إيجاز

وفيه:

١_ كلمة موجزة عن حياة (السكاكي) وكتابه.

٢_تقديم وتوضيح وإنصاف للسكاكي وكتابه.

١_ كلمة موجزة عن حياة (السكاكي)

السكاكي في أول حياته*

اختلفت حياة (السكاكي) الأولى، كما اختلفت عقليته، وكما اختلف فكره وتأليفه، واختلفت نشأته، فبينما نقرأ عن أي عالم من العلماء أنه حفظ القرآن في طفولته، أو كان يغلق على نفسه المكتبات _كما كان يفعل الجاحظ_ فلم يكن (السكاكي) هذا ، ولا ذاك.

فلم يعكف (السكاكي) على قراءة الكتب منذ طفولته، ولم يقرأ لهذا أو ذاك، بل كانت حياته لا تختلف عن حياة أي شخص خامل الذِّكر، يعيش دون هدف، فلم يكتشف (السكاكي) أنه ذو عقلية متميزة إلا متأخرًا.

إذن فلابد أن نتفق على أن (السكاكي) كان يعيش في مقتبل عمره طفولة عادية، لا تختلف عن طفولة أحد ممن يعيشون معه، فلم يكن متميزًا، ولم يهتم به أحدٌ مبكرًا، ولم ير أحد فيه نبوغًا ولا ذكاء.

حياة (السكاكي) الأولى غامضة كعقليته، وربما كان سبب غموض هذه الفترة ناشئًا من عدم اهتمام أحدٍ به اهتمامهم بالأبناء النابهين، ويكفي أن تقرأ لأحد المؤرخين الكبار، وهو معاصر للسكاكي يكتب عنه وعن حياته ثلاثة أسطر، يقول (ياقوت الحموي)، في كتابه: (معجم الأدباء):

"يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو يعقوب السكاكي: من أهل خوارزم، علامة إمام في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر، متكلم فقيه متفنن في علوم شتى، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان، ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وصنف

«مفتاح العلوم» في اثني عشر علمًا أحسن فيه كل الإحسان، وله غير ذلك، وهو اليوم حيّ ببلده خوارزم"(١).

وكلام صاحب معجم الأدباء السابق، كلام مقتضب، يمكن أن يكتب عن أي شخص، كتبه ياقوت مرارًا وتكرارًا عن آخرين.

ولعل أول ما يلفت انتباهنا، أن (ياقوت) نفسه _وهو المعاصر له_ لا يعلم شيئًا عن حياته الأولى، وأنه لم يقل مثل هذا الكلام عنه إلا بعد أن ذاع صيت (السكاكي) بتأليفه (مفتاح العلوم)، ويظهر هذا من قوله: "وصنف «مفتاح العلوم» في اثني عشر علما أحسن فيه كل الإحسان".

وهذا أكبر شاهد على أن حياة (السكاكي) الأولى كانت حياة خاملة، ليس فيها أي شيء، فهو طفل نشأ كغيره، لم ير أحدٌ فيه نبوغًا، ولم يكتشف أحدٌ تميز عقله، حتى والده لم يدرك ذلك.

عمل (السكاكي) سبب شهرته

حينما قرأت أن (السكاكي) كان يعمل في أول حياته (حدّادًا) فقد كان صانعًا يشتغل بالصناعات الحديدية اليدوية، وأنه ظل هكذا لفترة طويلة جدًّا _تعجبت، ولم يكن بسبب أنه يعمل (حدّادًا)، وإنما لأنه ظل يعمل بعيدًا عن العلم حتى الثلاثين من عمره.

---

* هذه الترجمة الموجزة عن السكاكي منقولة بنصها وفصها عن بحث لي عنوانه : السكاكي في كتابات البلاغيين المحدثين – منعا للتكرار.

(١) معجم الأدباء=إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت:٦٢٦هـ)، تح: : إحسان عباس: ٦/ ٢٨٤٦. دار الغرب الإسلامي، بيروت ط١، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م.

رجل نابغ، راض البلاغة رياضة الحاذق؛ فدنا له قصيها، ودان له عصيها، وذلل أوابدها، وملك فرائدها، وظل يعمل (حدّادًا) حتى ضاع من عمره ثلاثين عامًا، فهل يمكن أن يصدق مثل هذا الكلام؟!.

نعم، اتفق كل من ترجم له على ذلك، ويجب أن نصدق نحن ذلك؛ لأني كما قلت في أول حديثي: إن حياة (السكاكي) كعقليته ونبوغه.

لقد تفرد (السكاكي) في كل شيء، حتى حينما أراد تحصيل العلم، ظل بعيدًا عنه حتى مضى من عمره ثلاثون عامًا، لكن لأنه (السكاكي)، فحينما أراد ذلك كان له ما أراد، فقد وهبه الله عزيمة نادرة، وإرادة ثابتة، وإذا كان (السكاكي) قد ظل يعمل (حدّادًا) حتى الثلاثين من عمره؛ فإن عمله هذا كان سبب شهرته، وسر عبقريته.

لم يكن (السكاكي) _على ما أعتقد_ يعمل حدّادًا كغيره من أصحاب مهنته، لكنه يعمل عقله، ويتفنن في عمل الحدادة كما تفنن وانفرد في تأليفه، والقصة التي تروي عنه تؤكد ذلك:

ففي كتاب (روضات الجنات)، يقول الخوانساري: "والإمام (السكاكي) كان من جملة فضلاء الدهر والعلماء العالية المنزلة والقدر، ماهرًا في العلوم الغريبة. وكان في مبدأ أمره حدّادًا، فعمل بيده محبرة صغيرة من حديد، وجعل لها قفلاً عجيبًا، ولم يزد وزن تلك المحبرة وقفلها عن قيراط واحد، وأهداها إلى ملك زمانه، ولما رآه الملك وندماء مجلسه الرفيع لم يزيدوا على الترحيب بالرجل على صنعته، فاتفق أنه كان واقفًا في الحضور، إذ دخل رجل آخر، فقام الملك احترامًا لذلك الرجل، وأجلسه في مقامه، فسأل عنه (السكاكي)، فقيل: إنه من جملة العلماء، فتفكر (السكاكي) في نفسه أنه لو كان من هذه الطائفة لكان أبلغ إلى ما كان

يطلبه من الفضل والشرف والقبول، وخرج من ساعته إلى المدرسة لتحصيل العلوم، وكان إذ ذاك ذهب من عمره ثلاثون سنة، فقال له المدرس: لعلك في سن لا ينفعك فيه التعليم، وأرى ذهنك مما لا يساعدك على أمر التحصيل، فلابد فيما هنالك من الامتحان.

ثم أخذ يعلمه هذه المسألة التي هي من اجتهادات إمامهم (الشافعي)، وقال له: قال الشيخ: جلد الكلب يطهر بالدباغة، وجعل يكرر هذه العبارة عليه إلى أن بلغ ألف مرة، ثم لما جاءه من الغد طلب أن يحاكي درس أمسه الذي لقنه ألف مرة، فقال (السكاكي): قال الكلب: جلد الشيخ يطهر بالدباغة، فضحك منه الحاضرون. وعلّمه (الأستاذ) شيئًا آخر، وهكذا إلى أن مضى من عمر (السكاكي) في ذلك التعب في أمر التحصيل عشرة أعوام، فيئس من نفسه بالكلية، وضاق حلقه. فخرج إلى البراري والجبال، فاتفق أنه كان يتردد يومًا في شعب الجبال، إذ وقع نظره على قليل من الماء يتقاطر من فوقه على صخرة صماء، وقد ظهر فيها ثقبة من أثر ذلك التقاطر على عهد بعيد، فاعتبر من نفسه بهذه الكيفية، وقال: ليس قلبك بأقسى من هذه الصخرة، ولا خاطرك بأصلب منها حتى لا يتأثر بمراقبة التحصيل.

ورجع ثانيًا إلى المدرسة بعزمه الثابت، وتصمم في الأمر إلى أن فتح الله عليه أبواب العلوم والمعارف والأفنان، وحاز قصب السبق على جميع الأماثل والأقران من العلماء والأعيان"(١).

(١) روضات الجنات: ٤/ ٢٣٨. ومعجم المطبوعات، يوسف سركيس: ٢/ ١٠٣٢.

تعمدت نقل القصة كاملة لأنها تصور شخصية (السكاكي)، وعزمه الثابت، وإصراره على طلب العلم، وعدم يأسه، ويمكن أن نفهم من هذه القصة التي نقلها الخوانساري ويوسف سركيس في معجم المطبوعات الآتي :

أولاً: إن عمل (السكاكي) كان سببًا في شهرته؛ حيث إنه كان يتفنن في عمله ويتقنه، لدرجة أنه حينما طلب منه عمل محبرة صغيرة، تفوق على نفسه، وأبهر الملك والجالسين بإتقان صنعته.

ثانيًا: إن (السكاكي) رجل طموح منذ نشأته، حيث لفت نظره إجلال الملك وإكباره لرجل آخر لم يهد الملك شيئًا، ولم يتفوق في شيء، لكنه من جملة العلماء.

أدرك (السكاكي) حينذاك فضل العلم والعلماء، فتحولت حياته وقتها من التفنن في صنعة الحدادة إلى طلب العلم.

ثالثًا: لم يدرك (السكاكي) _لأنه رجل طموح_ أنه قد تأخر كثيرًا، وأنه يصعب عليه _بل ربما يستحيل_ أن يغير صنعته إلى أن يصبح طالبًا للعلم _فضلاً عن أن يكون عالمًا_ فصمم على طلب العلم والبحث عنه، وكادت نفسه أن يسيطر عليها اليأس، لولا ما حدث له.

يقول الدكتور/ مطلوب بعد نقله هذه القصة: "هذه القصة وإن كانت تدل على ثبات العزيمة وقوة الإرادة، فإننا نجد فيها مبالغة صيغت بأسلوب يكاد يكون أسطوريًا، فليس من المعقول أن يكون (السكاكي) على هذا

الغباء، وهو ممن بنوا بناءًا ليس باليسير في علوم اللغة العربية، وفي البلاغة التي كان فيها رأس مدرسة لها منهجها وأصولها"(١).

وأقول : بل هذا هو المعقول، والذي يمكن أن يستوعبه العقل ويقبله، وماذا تنتظر من رجل يطلب العلم بعد أن مضى من عمره ثلاثون عامًا فأكثر؟!. فالمعقول هو التعسر واليأس، وأما غير المعقول فهو الإلحاح في طلب العلم، والتصميم عليه، كما فعل (السكاكي).

(السكاكي) إذن هو من اكتشف عبقرية نفسه، وهو من أصر على إظهار نبوغه، هو وحده، وليس بمعاونة أحد له، أو مساندة أستاذ، لكنه حينما أراد أن يتعلم وأن يصبح متفردًا في علمه، ظل يبحث عن العلم، ولا يأبه بالفشل مرة أخرى، لكنه هضم ألوانًا من الثقافات، وأتى على كل طارف وتليد في العربية، حتى حاز فيها قصب السبق، وفاق أقرانه.

***تنوع ثقافة (السكاكي) وقلة مؤلفاته:**

لعل من العجيب والغريب أن نطلق هذا الكلام على رجل عرف العلم بعد الثلاثين من عمره، وبدأ يقرأ ويطلع ويستوعب بعد الأربعين من عمره، فأي ثقافة هذه التي يمكن أن تؤثر فيه، وهو لم ينشأ في طلب العلم، كما يفعل غيره من العلماء الأفذاذ العماليق؟!.

فهل يمكن لنا أن نصف (السكاكي) بأنه برع في اللغة التركية والفارسية؟! وأنه تفنن في العلوم العقلية والسحر؟! فضلاً عن إجادته للغة

---

(١) البلاغة عند السكاكي، ماجستير، د/ أحمد مطلوب، ص٤٩. ولاحظ قول الدكتور مطلوب: (كان فيها رأس مدرسة لها منهجها وأصولها)؛ لتدرك الآن اعترافه بقيمة (السكاكي).

العربية بكل علومها وفنونها، وهل يمكن لنا أن نصدق أن (السكاكي) كان بجانب ثقافته اللغوية، كانت له ثقافته الكلامية والمنطقية والفقهية.

يقول صاحب معجم الأدباء عن ثقافته: "متكلم فقيه متفنن في علوم شتى، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الركبان"(١).

ويقول صاحب (روضات الجنات): "واشتهر بعمل الأعاجيب من الصور والغرائب من المقاليد والأقفال، قبل تشرفه بفضيلة الاشتغال بالعلم"(٢).

تعلم (السكاكي) وتزود بثقافات متعددة هضمها واستوعبها في أقل من نصف عمره. أيّ عالم هذا؟! وأي رجل هذا؟!.

لقد أجمع كل من ترجم له على أنه بدأ التعلم بعد الثلاثين، وتعلم بعد الأربعين، فأي عقلية هذه التي استطاعت أن تستوعب كل هذه العلوم والثقافات!. ولعل ما أثار دهشتي أن (السكاكي) حينما ألّف كتابًا لم يؤلفه في صنف من العلوم، لكنه ألف مفتاحًا للعلوم، على حد قوله.

حينما تقرأ كتابه تشعر أنك أمام رجل تتلمذ على الأفذاذ من العلماء، وقضى عمره كله في الاطلاع والقراءة.

(السكاكي) إذن رجل برع في كثير من الفنون، ولا يجب أن تسأل عن الكيفية؛ لأنك لن تستوعب ما يقال. هو فحسب عقلية لا توصف، أوتي عقلاً خصبًا، وذكاءً يميزه عن غيره ممن عاصروه.

---

(١) معجم الأدباء:٢/ ٥٩.

(٢) روضات الجنات: ٤/ ٢٣٨.

لا مفر إذن من أن تصدق أن (السكاكي) هو جيل بأكمله _اتفقتَ معه أو اختلفتَ، فهمتَ ما يكتب أو لم تفهم_؛ لأنه يكتب بأسلوب عصره، وألّف على طريقة عصره، وقد ذُكر له مؤلفات قليلة، أشهرها وأعرقها سفره العظيم (مفتاح العلوم)، لكنه كما ذكر (ابن خلدون)(١) وغيره، فإن له كتاب (التبيان)، وكتاب (شرح الجمل)، وكتاب (الطلسم).

(١) مقدمة ابن خلدون، ص٥٥٢.

٢- تقديم وتوضيح وإنصاف للسكاكي وكتابه، لا مفر من ذكره

جاء في كتاب: (المسكوت عنه في التراث البلاغي) لأستاذنا الدكتور أبو موسى :

"ثم جاءت المرحلة الثالثة، وصاحبها: (أبو يعقوب يوسف السكاكي)، وقد وضع بصمته على هذا العلم، ولا تزال هذه الإصبع أو هذه البصمة ضابطا لكل المشتغلين به، لا نزال نخطّأ ونُحاسَب على خطئنا إذا تجاوزنا حدًّا من الحدود، وضابطًا من الضوابط التي وضعها هذا العبقري النادر، والذي أساء إليه المتكلمون في العلم، وهم متكئون على أرائكهم، ولو سكتوا لاستراح الناس.

لحظ (أبو يعقوب) أن بين يديه فيضًا من الدرس البلاغي، أصله كتابا (عبد القاهر) (الأسرار والدلائل)، ثم تفسير الزمخشري، ثم كتاب الرازي، الذي لخّص فيه كتابي (عبد القاهر)، وأن هذا الفيض لم تُضبط معاقده، بمعنى أنه لم يُضبط في أبواب، ولم تتحدد الأبواب في مسائل، ولو اتفق أن سقط منه باب وهو على الحال التي هو عليها، ربما لم يلتفت إلى ما سقط، والأصل أن يكون مضبوطًا ضبطًا يمنع أن ينقص منه باب أو بحث، أو يزاد فيه باب أو بحث.

فحدد رسالته مع هذا العلم من أول الأمر، وبين أن مجهوده فيه هو الذي تتطلبه حالته هذه المرسلة، وهي ضبط معاقد هذا العلم، ولم يذكر أسماء هؤلاء الثلاثة، وإنما سماهم الأصحاب، وذكر أن يجرد نفسه لضبط معاقد علم هؤلاء الأصحاب.

وبالنظر في العلم الذي في كتابه، لن نجد شيئًا خارجًا عن علم (عبد القاهر)، الذي هو الأصل والأساس، ثم علم (الزمخشري)، الذي برع

براعة نادرة في استثمار علم (عبد القاهر)، ثم علم (الرازي)، وهو متواضعٌ جدًّا.

ثم يقول أستاذنا بعد كلام طويل:

والمهم أن (السكاكي) وجد بين يديه تراث الأصحاب هذا، ولاحظَ فيه إشارة (الزمخشري) إلى علمي المعاني والبيان، مع أن (الزمخشري) لم يحدد أي علم من العلمين، وإنما كانت هذه إشارة.

ثم كان من أبي يعقوب، أن حدد مباحث علم المعاني في الأبواب الثمانية، وعلم البيان في الأبواب الثلاثة، وترك البديع بابًا مفتوحًا للذي لا يدخل في هذين العلمين...

وأنت ترى أن (عبد القاهر) قال: (معاني النحو)، ولم يقل: (علم معاني النحو)...، ثم جاء (الزمخشري) وقال: (المعاني)، بالألف واللام، بدل (معاني النحو)، ودلت الألف واللام على المضاف إليه المحذوف، واللبس مأمون عند ذوي الفهوم، ثم أضاف كلمة (علم)، وفاجأ الناس في مقدمة تفسيره بعلم جديد اسمه: (علم المعاني)، وعطف عليه علمًا آخر سماه: (علم البيان)، ولم يحدد مباحث أي علم منهما، وإنما أشار إلى أنهما العلمان اللذان لا غنى للمفسر عنهما، وأنهما غير النحو؛ لأنك لو كنت أنحى من (سيبويه) فإن نحو (سيبويه) لا يغنيك في التفسير عنهما.

ثم جاء (أبو يعقوب)، وهو عقل آخر، كأن ضبط المعاقد يجري في لحمه ودمه، فوضع لعلم المعاني أبوابًا ثمانية، لا يزال العلم عنوانًا لها إلى يوم الناس هذا.

وعجيبٌ أن (الزمخشري) تجاهل مصطلح (دلائل الإعجاز)، الذي جعله (عبد القاهر) عنواناً لكتابه، وتجاهل مع هذا قصة الإعجاز التي قام كتاب (عبد القاهر) عليها، وسمى ما في كتاب الدلائل (علم المعاني) _وإن لم يُصرح بذلك، كما سمى ما في الأسرار (علم البيان)، وإن لم يصرح بذلك.

وإذا قلت: إن الذي اقتاد علم (عبد القاهر) الذي في الدلائل من حقله الذي زرعه فيه (عبد القاهر)، وهو حقل الإعجاز، وجعل منه علمًا جديدًا، هو علم المعاني، أقول: إذا قلت إن (الزمخشري) هو الذي فعل ذلك لم تكن مخطئًا.

و(الزمخشري) انتفع بهذا العلم في بحث الأسرار الذي هو طريق الإعجاز، وليس هو.

ثم جاراه (أبو يعقوب) الذي ليس أقل قامة من (الزمخشري)، وربما صادف صنيع (الزمخشري) هوى عند (أبي يعقوب)؛ لأن (أبا يعقوب) يرى أن مدرك الإعجاز هو الذوق...

ومما يحسن ذكره في هذا السياق أن (عبد القاهر) سمى ما في كتابه (دلائل الإعجاز)، وسماه (الزمخشري) علم المعاني، وهو من دلائل الإعجاز بمكان، وسماه بعضنا نحوًا ثائرًا ومتمردًا على نحو سيبويه، وكأن (عبد القاهر) كتب نحوًا وهو لا يدري أنه يكتب نحوًا.

وسماه (الزمخشري) علم المعاني، وهو لا يدري أنه يسمي النحو المتمرد (علم المعاني)، وصار هذا في ظل رحلة الرشد، وفي ظل الدجل تجديدًا وتنويرًا.

وأعود إلى (السكاكي) الذي كان غاية في قدرته على ضبط معاقد المعرفة، وأظهر ما كان منه أنه رأي كتاب (دلائل الإعجاز)، مؤسسًا على مباحث لم تكن هذه المباحث ممسكًا بعضها ببعض، على الوجه الذي يرضاه، فالحذف كله باب واحد، والتقديم كله باب واحد، وفروق الخبر كلها باب واحد، ثم لحظ أنها لا تكون ولا يمكن أن تكون إلا واقعة على مكون من مكونات الجملة، وأن هذه المكونات لا تخرج على أن تكون مسندًا إليه ومسندًا، ومتعلقًا بالمسند، وأن توزيع هذه المباحث على هذه المكونات يجعل بعضها ممسكًا ببعض، وهذا أدخل في ضبط المعاقد من تركها هكذا مرسلة.

ثم إن المسند إليه والمسند لا ينفكان البتة من إسنادٍ بينهما، فاستقام له بذلك أربعة أبواب، هي الأبواب الأساسية في (علم المعاني).

باب الإسناد الخبري، الذي يبحث فيه عن التوكيد وعدم التوكيد، وسماه أضرب الخبر، وباب أحوال المسند إليه، وباب أحوال المسند، وباب متعلقات الفعل، ثم أضاف الفصل والوصل، وهما بابان في دلائل الإعجاز، ثم أضاف إلى كتاب الدلائل باب الخبر والإنشاء، وباب الإيجاز والإطناب، فتمت الأبواب الثمانية التي أقام علم المعاني عليها.

وهذا واضح في أن الذي دخل علم المعاني من كتاب دلائل الإعجاز الأبواب الخمسة، التي هي: التقديم والتأخير، والحذف، وفروق الخبر، والفصل والوصل، والقصر، وبقي كل ما في الكتاب مسكوتًا عنه.

ويلاحظ أن هذه الأبواب الستة هي أصل علم المعاني؛ لأن البابين المضافين، وهما (الخبر والإنشاء، والإيجاز والإطناب)، ليس فيهما من الدقة والغموض والخفايا والأسرار التي في الحذف والتقديم وفروق الخبر.

وقد لحظ (الخطيب القزويني) الذي لخص (المفتاح)، أن (أبا يعقوب السكاكي) جفف مباحث متعلقات الفعل ،والتقديم، من كثير من مائها الذي أجراه تذوقها حين بحث عنها في الكلام، غير مقيد بمسند إليه أو مسند، فأضاف في كتاب (الإيضاح) إليها قدرًا من كلام (عبد القاهر)؛ لتكون أفضل، مع احتفاظه بضبط المعاقد الذي انتهى إليه (أبو يعقوب)، والذي قاوم الدهور والأمكنة والأجيال، حتى انتهى إلينا، وصار عليه المعول في دراسة هذا العلم في معاهدنا وجامعاتنا ومؤلفاتنا"[1].

تعمدت نقْل كثير من كلام أستاذنا الدكتور/ محمد أبو موسى، في كتابه: (المسكوت عنه في التراث البلاغي)؛ لأنه كلام غاية في الجودة والإنصاف – لمن يتدبره–.

وقبل أن نقف مع كلام سيادته، يكفي أن تقرأ له آخر سطرين:

"... مع احتفاظه بضبط المعاقد الذي انتهي إليه (أبو يعقوب)، والذي قاوم الدهور والأمكنة والأجيال، حتى انتهى إلينا، وصار عليه المعول في دراسة هذا العلم في معاهدنا وجامعاتنا ومؤلفاتنا".

إذا كنتَ منصفًا، أو أردت أن تكون كذلك، فعليك أن تُقِرّ بما أقر به علم كبير من أعلام البلاغة، ورائد من روادها الذين أفنوا عمرهم في القراءة والتحليل.

إذا كنتَ منصفًا، أو أردت أن تكون كذلك، فلابد أن تتسلح بقليل من الشجاعة _كما اعترف أستاذنا العلامة_ أن (السكاكي) قد قاوم بكتابه

(١) ينظر: تفصيل ذلك في كتاب: المسكوت عنه في التراث البلاغي، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ص١٥٣ وما بعدها، ط١، ١٤٣٨هـ_٢٠١٧م.

الدهور والأجيال، حتى انتهى إلينا، وصار عليه المعول في دراسة (علم البلاغة)، في معاهدنا وجامعاتنا.

إذا كنتَ منصفًا، أو أردت أن تكون كذلك، فليس عليك سوى أن تقرأ كتابًا واحدًا من الكتب التي أُلفت في البلاغة إلى يومنا هذا ، لتدرك أن أثر (السكاكي) فيه وفي ضبط معاقده ظاهر غير مستتر.

وإلا فاسكت حتى يستريح الناس _كما ذكر أستاذنا العلامة.

ونعود إلى كلام صاحب: (المسكوت عنه في التراث البلاغي)، لنقرأه جيّدًا، وسندرك أننا جنينا على عالم هو درة (علم البلاغة).

يقول سيادته: ""ثم جاءت المرحلة الثالثة، وصاحبها: (أبو يعقوب يوسف السكاكي)...الخ"

أقول: حاول كثير من الباحثين نقد (السكاكي) وكتابه: (مفتاح العلوم)، واتهامه بكل ما يمكن أن يُتهم به باحث في أول حياته _فضلاً عن عالم كبير، لم يتكرر في تاريخ البلاغة.

قرأ العلامة (السكاكي)أكثر الكتب التي أُلفت قبله، وهضمها، واستوعب ما فيها، ثم ألّف لنا درة من درر البلاغة، ظلت حتى وقتنا هذا هي أساس كل سطر يكتب في البلاغة.

والعجيب والغريب أن ما اتهم به العلامة (السكاكي) هو حسنات تضاف إلى جهد كبير لم يستطع غيره أن يكتب صفحات منها، بل سطورًا.

اتُّهم (السكاكي) بضبطه المصطلحات البلاغية، وحاول من حاول نقده أن يأتوا بجديد يرد كلام صاحب المفتاح، فلم يفلحوا.

وكما يقول أستاذنا الدكتور: (أبو موسى): "ولو سكتوا لاستراح الناس".

كان الأجدر بهم، إما أن يحاولوا إضافة أي جديد، أو أن يسكتوا ويكتفوا بقراءة ما كتبه (السكاكي)، وما سطره في كتابه.

ونعود إلى كلام شيخ البلاغيين في العصر الحديث: "...لا نزال نخطّأ ونُحاسَب على خطئنا إذا تجاوزنا حدًّا من الحدود، وضابطًا من الضوابط التي وضعها هذا العبقري النادر".

أي دقة، وأي علم هذا الذي وصل إليه العلامة (السكاكي)؟! الذي جعل كل من أتى بعده لم يستطيعوا أن يكتبوا، أو يُضيفوا عنوانًا، أو موضوعًا، أو فصلاً لم يكتبه (السكاكي).

هم فقط نجحوا في تنفير كل من أتى بعده من كتابه، ولم يعي هؤلاء أن هذا التحديد هو من حافظ على تراث الشيخ (عبد القاهر) ومن سبقه.

ما كتبه شيخنا، الدكتور: (أبو موسى) هنا من إنصاف للسكاكي وكتابه، يجب أن يُدرس، وسنقف بالتفصيل مع آراء الشيخ (أبو موسى)، وإنصافه للسكاكي، حين يجيب البحث عن الأسئلة التي طرحها في فصول كثيره.

وسندرك قيمة كلام أستاذنا العلامة، حين نبرئ ساحة (السكاكي) مما اتهم به من اتهامات، لا يجب أن تخرج من صغار الباحثين _فضلاً عن علماء وأساتذة، لهم قدرهم.

الفصل الأول

منهج السكاكي في كتابه ونقده

لعل أول نقد للسكاكي وكتابه: (مفتاح العلوم)، هو الكتاب برمته، ومنهج (السكاكي) فيه، وطريقة تناول المسائل البلاغية.

رفَض بعض الباحثين والأساتذة _ وهم كثر _ مجرد أن تنتقل البلاغة من القرن الخامس الهجري، الذي يتسم بالناحية الأدبية _ على حد قولهم، إلى القرن السابع الهجري.

واعترض بعض الباحثين أن تنتقل البلاغة من (عبد القاهر) إلى (السكاكي).

بل وصل بهم الأمر أن يهاجموا أصحاب القرن السابع الهجري، وزعيمهم (السكاكي)، أنهم لا يكتبون ولا يؤلفون كما كتب وسطّر وألف (عبد القاهر)، زعيم البلاغة ورائدها في القرن الخامس الهجري.

ولعل هذا _ من جهة نظري _ أغرب نقد يمكن أن يُوجه لأحد.

فأن تكتب بطريقة غيرك، وأن تعيش في عصر غيرك، وأن تتجرد من عصرك، دليل على جهلٍ، حين تتهم غيرك به.

ومع ذلك لقِيَت طريقة (السكاكي)، ولقي كتابه (مفتاح العلوم) من الباحثين والدارسين عناية فائقة، واهتمامًا بالغًا، لم يلقه غيره من الكتب البلاغية، منذ أن انتشر في المشرق والمغرب، في القرن السابع الهجري، فانشغل الناس به، وكُتبت عليه كثير من الشروح والتلخيصات، وسيطر منهجه على الدرس البلاغي _كما أشار أستاذنا الدكتور (أبو موسى) منذ قليل.

وما زال لكتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي تأثيره حتى عصرنا الحاضر، وانحصر اهتمام الدارسين له بالقسم الثالث منه، وهو الخاص بالدراسة البلاغية(١).

وقد بحثَ (السكاكي) في كتابه (مفتاح العلوم): الصرف والنحو والمعاني والبيان والاستدلال والعروض والقوافي.

قال (السكاكي) في مقدمة كتابه: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب – دون نوع اللغة – ما رأيته لا بد منه، وهي عدة أنواع متآخذة، فأودعته علم الصرف بتمامه، وإنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة، وقد كشفت عنها القناع. وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمي المعاني والبيان، ولقد قضيت بتوفيق الله منهما الوطر، ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال لم أر بُداً من التمسح بهما، وحين كان التدرب في علمي المعاني والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر، ورأيت صاحب النظم يفتقر إلى علمي العروض والقوافي = ثنيت عنان القلم إلى إيرادهما.

وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا إلا بعد ما ميزت البعض عن البعض التمييز المناسب، ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك ،ومهدت لكل من ذلك أصولاً لائقة ،وأوردت حججاً مناسبة ،وقررت ما

(١) ينظر: تفصيل ذلك في مقدمة شرح مفتاح العلوم للشيرازي، د/ نزيه فراج، دكتوراه، إشراف : أ.د/ كامل إمام الخولي، ص١١، ويراجع : شرح مفتاح العلوم للعلامة / يحي بن أحمد الكاشي تحت رقم ١٦٥ بلاغة، شرح المفتاح لحسام الدين المؤذني تحت رقم ٤٣٦ / ١٤٩ ، وشرح مفتاح العلوم للسيد الشريف – تحقيق أستاذنا العلامة الأستاذ الدكتور / فريد محمد بدوي النكلاوي في رسالة دكتوراه.

صادفت من آراء السلف – قدس الله أرواحهم– بقدر ما احتملت من التقرير ،مع الإرشاد على ضروب مباحث قلت عناية السلف بها ،وإيراد لطائف مفتنة ما فتق أحد بها رتق أذن، وها أنا ممل حواشي جارية مجرى الشرح للمواضع المشكلة، مستكشفة عن لطائف المباحث المهملة ،مطلعة على مزيد تفاصيل في أماكن تمس الحاجة إليها ، فاعلاً ذلك كله عسى إذا قيض في اللحد المضجع أن يدعى لي بدعوة تسمع،...

ثم حدد منهجه وفصول كتابه وأبوابه، يقول: "...صنفت كتابي هذا، وضمنت لمن أتقنه أن ينفتح عليه جميع المطالب العلمية، وسميته: (مفتاح العلوم)، وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في علم الصرف، القسم الثاني: في علم النحو، القسم الثالث: في علمي المعاني والبيان.

وبيّن سبب تقسيمه وترتيب كتابه على هذا النحو، فذهب يقول: "وإنما أغنت هذه لأن مثارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة: المفرد، والتأليف، وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له، وهذه الأنواع –بعد علم اللغة– هي المرجوع إليها في كفاية ذلك ما لم يتخط على النظم، فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما في المفرد والتأليف، ويرجع إلى علمي المعاني والبيان في الأخير، ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه في المفرد أو فيما هو في حكم المفرد، والنحو بالعكس من ذلك، –كما ستقف عليه– وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس

التأليف، لا جرم أنا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعًا؛ لنؤثر ترتباً استحقته طبعاً"(١).

لست أدري سببًا واحدًا يجعلنا ننقد منهج (السكاكي) وطريقته في عرض أبوابه وفصوله، ونزعم أنه اخترع منهجًا جديدًا، وطريقة غريبة في التأليف البلاغي.

فبدلاً من مدح الرجل والإشادة به، لأنه نظم كتابه بطريقة غير معتادة، وأنه رتب أبواب الكتاب وفصوله، وجعل القسم الأول من الكتاب ينقلنا بسلاسة إلى القسم الثاني والثالث دون جهد =نقوم بنقد منهجه وشن الحملات عليه وعلى تأليفه.

وفي شرح (المفتاح) للعلامة: حسام الدين المؤذني، يقول عن سبب تقسيم (السكاكي) كتابه هكذا إلى ثلاثة أقسام: "قسم (السكاكي) كتابه ثلاثة أقسام، حيث جعل كل واحد من الصرف والنحو قسمًا، وجعل النوعين : المعاني والبيان قسمًا واحدًا؛ لمكان الاتحاد بينهما، على زعمه، إذ البيان شعبة من المعاني .

والحق _ والكلام للمؤذني _ أن يُجعل كل واحد قسمًا على حدة؛ لأن المرجع في كل واحد إلى خلاف ما يرجع في الآخر.

ونحن علينا أن نأخذ في تحقيق ذلك إذا أفضت النوبة إلى التعرض لكل واحد من النوعين.

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي، ص٥ وما بعدها، ط مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٤١١هـ_١٩٩٠م.

وإنما قال ثلاثة أقسام، ولم يعتد بغير ذلك من الأنواع؛ لأن هذه الأنواع الأربعة مذيلة بغير ذلك، فكانت مقصودة دون غيرها، فلم يقيد ذلك الغير"[١]انتهى.

ويقول العلامة الشيخ محمد الرومي القلم بكي: "وقد أحسن (السكاكي) _رضي الله عنه_ حينما قسّم كتابه ثلاثة أقسام، الأول: في علم الصرف، والثاني: في علم النحو، والثالث: في علمي المعاني والبيان؛ وذلك لأن مثارات الخطأ _كما قال_ ثلاثة: المفرد ،والتأليف ،وكون المركب مطابقًا لما يجب أن يتكلم له، فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما في المفرد والتأليف، ويرجع إلى علمي المعاني والبيان في الأخير"[٢].

ويبدو أن العلامة (الأردبيلي) في شرحه (مفتاح العلوم) وتنقيحه قد أحس بتطاول بعض الجهال _على حد قوله_ على (مفتاح العلوم)؛ لكونهم قد عجزوا عن فهمه، فراح يقول في مقدمة شرحه:

"وأيم الله، إنه لحقيق بأن يُلتزم، وحري بأن يُخدم؛ فإن ثمرات البلاغة منه _يعني (مفتاح العلوم)_ تُجتنى، وذخائر البراعة من غرائبه تُقتنى، فهو الذي أصبح به بحر مدين عذبًا فراتًا، بعدما كان ملحًا أجاجًا،

(١) شرح مفتاح العلوم لحسام الدين المؤذني الخوارزمي، مخطوط تحت رقم: ١٤٩/ ٤٣٦٠، لوحة: ١٢.

(٢) مفاتيح مغلقات المفتاح، للشيخ محمد الرومي القلم بكي، مخطوط نادر، لوحة رقم: ٣، تحت رقم: ٩٧/ ٢٩٨٥، بلاغة، ويراجع أيضًا: شرح مفتاح العلوم، لابن كمال باشا، المسمى: تغيير المفتاح، تحت رقم: ٥١٠٧/٨١٩٣، ت.ك.

ولكنْ لِطُول ذَيل شواهده منجرًا على الغير...، ونشبت شوك طعن الجهلة، وتلوث بأوساخ أوهام السَّفلة أذياله المطهرة"(١).

ونقول للعلامة (الأردبيلي): هؤلاء السفلة والجهلة _على حد قولك_ أضاعوا أعمارهم في محاولة هدم كتاب (مفتاح العلوم)، بادعاء أن منهجه وطريقته تختلف عن التأليف قبله، لكنْ هيهات لهم ذلك، لقد ذهب هؤلاء بنقدهم، وبقي كتاب (مفتاح العلوم)، شامخًا يُدرّس في دور العلم إلى يومنا هذا.

بل وكما قال أستاذنا الدكتور: (أبو موسى) من ذي قبل: "ونُحاسَب على خطئنا إذا تجاوزنا حدًّا من الحدود، وضابطًا من الضوابط التي وضعها هذا العبقري النادر".

منهج (السكاكي) يتفق كثيرًا مع منهج (ابن سنان):

إن منهج (السكاكي) يتفق كثيرًا مع منهج (ابن سنان) ، في (سر الفصاحة)، ولو دقق كل من حاول نقد منهج (السكاكي) وطريقة تأليفه كتابه: (مفتاح العلوم)، بل لو أنصف هؤلاء لأيقنوا أن العلامة (السكاكي) قد تشابه إلى حدّ كبير مع منهج العلامة (ابن سنان الخفاجي).

اسمع إليه وتأمل، لتدرك ذلك بنفسك، يقول (ابن سنان): "ونحن نذكر قبل الكلام في معنى الفصاحة نبذا من أحكام الأصوات والتنبيه على حقيقتها ،ثم نذكر تقطعها على وجه يكون حروفا متميزة ونشير إلى طرف

(١) شرح مفتاح العلوم، للأردبيلي، تاج الدين تبريزي، أبو الحسن، علي بن عبد الله الأردبيلي، لوحة رقم:٣، مخطوط تحت رقم: ١٠٩٣٧/٧٠٣.

من أحوال الحروف في مخارجها، ثم ندل على أن الكلام ما انتظم منها..."[1].

وقد أجاد العلامة (ابن سنان الخفاجي) في ذلك، وأوفى بما وعد، حيث بدأ كتابه بالحديث عن الأصوات، ثم الحروف، ثم وضع فصلاً في الكلام ثم في اللغة، ثم تحدث عن الفصاحة، ثم الكلام في الألفاظ المؤلفة، ثم الكلام في المعاني، ثم تحدث عن المنظوم والمنثور والفرق بينهما.

وفي أثناء هذا كله كان يعالج قضية الإعجاز والفصاحة؛ مستعيناً في ذلك بأكثر أبواب البلاغة بأقسامها المعروفة، وموضوعاتها وفصولها التي استقرت عند العلامة (السكاكي)، في كتابه (مفتاح العلوم).

ولعل الشبه بين منهجي (الخفاجي) و(السكاكي)، في كتابيهما لا يحتاج إلى دليل، حيث بدأ كل منهما في كتابه بالصوت فالحرف فالكلمة فالجملة، وتناول كل منهما القضايا البلاغية، لتخدم كتابيهما.

فإذا كان كتاب (ابن سنان) هو سرُّ الفصاحةِ _وقد تناول فيه أكثر أبواب البلاغة، فإن كتاب (السكاكي) هو مفتاحٌ للعلوم جميعها، وقد تناول فيه _أيضًا_ علوم البلاغة، أو علمي المعاني والبيان.

وإذا كان الغرض من (سر الفصاحة) الرئيس، هو قضية الإعجاز القرآني وسر الفصاحة، فإن الغرض الرئيس من (مفتاح العلوم) _أيضًا_ قضية الإعجاز القرآني، وسيأتي بيان ذلك في مكانه من هذا البحث.

وقد تناول العالمان القضايا البلاغية في كتابيهما، تناولاً يخدم غرضهما بالطريقة التي يرتضياها، والتي تناسب العصر الذي يعيشان فيه.

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، ص٤، تح: د/ النبوي عبد الواحد شعلان.

ولما كانت البلاغة قد اكتملت على يد العلامة (السكاكي)، فإن الأبواب البلاغية قد ظهرت واتضحت عنده، بعد أنه هضم كل ما كُتب قبله في كتب القدماء، ومنهم (ابن سنان الخفاجي).

الفصل الثاني:

نقد أسلوب (السكاكي) في كتابه

إذا كان بعض النقاد والبلاغيين قد شنوا هجومًا ممنهجًا على كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، وطريقة تأليف صاحبه، وعرضه لمنهجه وقضاياه، وفصول كتابه وأبوابه _فإن ذلك جعلهم يتوجهون إلى (أسلوبه)_ أيضًا.

فقد زعم بعض البلاغيين _وهم كثر_ أن أكثر ما أفسد كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، هو (أسلوبه)؛ لأن العجمة كانت تسيطر على صاحبه، فجاء كتابه خاليًا من كل فضيلة، وجاء أسلوب (السكاكي) وطريقة عرضه يشوبها الغموض.

حتى إن أكثر من نقدوا (السكاكي) كانوا دائمًا يعقدون موازنة بينه وبين أستاذه، الشيخ (عبد القاهر الجرجاني)، الذي كان أسلوبه ينحو به نحو الأدب، والطريقة التحليلية الأدبية، التي خلا منها كتاب (مفتاح العلوم) _على حد قولهم.

حيث ذكر أكثر البلاغيين الذين لفظوا كتاب (السكاكي) وهاجموه= أن أسلوب (السكاكي) كان أسلوبًا تقريريًّا، لا يعني فيه صاحبه إلا بتقرير القواعد.

وكنت قد فصّلت القول في ذلك، وذكرت أكثر من هاجموا (السكاكي) وكتابه، وسبب ذلك، في بحث، عنوانه: (السكاكي في كتابات البلاغيين المحدَثين)، ذكرت فيه كلام هؤلاء والرد عليه بالتفصيل.

لقد جنى هؤلاء النقاد على (السكاكي)، حين حاولوا موازنة أسلوبه وطريقة عرضه وتأليفه بالشيخ (عبد القاهر الجرجاني).

بل ظلم هؤلاء صاحب (المفتاح)، حينما حاولوا أن يجعلوه يؤلف على طريقة غيره.

لقد نسي هؤلاء _أو تناسوا_ أن العلامة (السكاكي) قد وُلِد في القرن السابع الهجري، عصر حازم القرطاجني، ومن قبله (الرازي)، عصر الفلاسفة في كل العلوم الأدبية والشرعية.

=وأن العلامة (عبد القاهر الجرجاني) وُلد في القرن الخامس الهجري، وعاش فيه، وهو عصر الأدباء والشعراء والنقاد، وأن الموازنة بين العالمين الكبيرين في أسلوبهما وطريقة تأليفهما موازنة ظالمة.

لقد نسي هؤلاء الذين حاولوا نقد أسلوب (السكاكي) في كتابه _الغرض من التأليف والزمن والعصر ،فقد حاولوا الموازنة لمجرد الموازنة، والنقد لمجرد النقد.

عابوا على (السكاكي) أسلوبه في التأليف ، كما عابوا عليه الطريقة التقريرية ،وخلو كتابه من الطريقة الأدبية.

ومع ذلك فإني أكاد أُجزم أن أسلوب الشيخ (عبد القاهر) في كتابيه يحتاج إلى كثير من الشرح والتوضيح، ولولا ذلك لما قام بعض الأساتذة بشرح كتابيه وتوضيح غامضهما(١).

---

(١) يراجع: كتاب شرح أسرار البلاغة، وكتاب شرح دلائل الإعجاز، لأستاذي: أ.د/ محمد إبراهيم شادي، ط دار اليقين. وشرح صوتي، لأستاذنا: أ.د/ محمد أبو موسى، و: أ.د/ إبراهيم الهدهد.

فإذا كانت هناك شروح على كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، فليس لغموض كتابته، وليس عيبًا في أسلوب كتابه، لكنها سمة العصر الذي عاش فيه، وهو عصر الشروح والحواشي والتقارير.

ولسنا هنا في مجال المفاضلة والموازنة بين أسلوب الشيخ (عبد القاهر)، وأسلوب (السكاكي)؛ لأن كلا العالِمين كتب بطريقة عصره، وأسلوب عصره، وألّف كما كان يؤلف معاصروه ويكتبون.

لم يشذ (السكاكي) في تأليفه عن أسلوب الكتابة في القرن السابع الهجري، وما كان له إلا أن يكتب بها.

كتاب (السكاكي) كما يظهر من اسمه، هو مفتاح للعلوم، فطريقته فيه يغلب عليها الجانب النظري، ومع ذلك نجده في كثير من صفحات كتابه يذوب أسلوبه رقةً وعذوبةً وسلاسةً، لم يترك القاعدة التي من أجلها ألّف كتابه ليكون مفتاحًا لعلم النحو والصرف والبلاغة والعروض، لكنه مع ذلك لم يكن أسلوبه غامضًا _كما قال بعض أساتذتنا: "لم يكن أسلوب البليغ الممتاز مثل عبد القاهر؛ لأن العجمة كانت غالبة على أسلوبه، وكان الأسلوب التقريري الذي لا يُعنَى إلا بتقرير القواعد غالبا عليه، فكان في أسلوبه كثير من الغموض والتعقيد وضعف التأليف، ومثل هذا قد يفيد الناظر فيه علمًا، ولا يفيده أسلوبًا بليغا، بل يفسد فيه مَلَكة البلاغة، وبهذا يكون ضرره أكبر من نفعه"[1].

(١) مقدمة بغية الإيضاح، للشيخ: عبد المتعال الصعيدي، ص٥، مكتبة الآداب، ط١٩، ١٤٣٨هـ.

ويكفي أن نرد على شيخنا بقول: أ.د/ محمد أبو موسى: "والذي أساء إليه المتكلمون في العلم، وهم متكئون على أرائكهم، ولو سكتوا لاستراح الناس"(١).

وكما قال أستاذنا، الأستاذ الدكتور/ فضل حسن عباس: "ورحم الله (السكاكي)، ونرجو أن يؤجر على هذه الحملات التي تُوجه إليه"(٢).

ونعود إلى كلام شيخنا، الشيخ: عبد المتعال الصعيدي: " فكان في أسلوبه كثير من الغموض والتعقيد وضعف التأليف".

ونقول: لقد نسي الشيخ (عبد المتعال الصعيدي) أنه يشرح كتاب "بغية الإيضاح على مفتاح السكاكي"، وأن أصل معرفة هذه المسائل عند (ابن سنان الخفاجي)، الذي تأثر به العلامة (السكاكي) في تأليف كتابه إلى حدٍّ كبير.

يتهم الشيخ (الصعيدي) أسلوب (السكاكي) بالتعقيد وضعف التأليف في الكتابة، وأزعم أني قرأت كتاب (مفتاح العلوم) وشروحه كاملة، فلم أجد تعقيدًا ولا ضعفًا في تأليف (السكاكي).

قرأت شرح المفتاح للشيرازي، والسيد الشريف، والتفتازاني، وابن كمال باشا، وحسام المؤذني ، والكاشي ، وغيرهم .

قرأت المفتاح جيِّدًا، واستمتعت بقراءة كتابَي: الدلائل والأسرار للشيخ عبد القاهر الجرجاني، من ذي قبل.

---

(١) المسكوت عنه في التراث البلاغي، ص١٥٣.

(٢) البلاغة المفترَى عليها، ص١٤٥.

وإليك بعض النماذج من كلام (السكاكي) في مفتاح العلوم، لتدرك بنفسك كيف أن أسلوبه لم يكن ضعيفًا، ولا معقّدًا _كما زعم الزاعمون، يقول (السكاكي) في أول كتابه:

"وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا إلا بعد ما ميزت البعض عن البعض التمييز المناسب، ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك، ومهدت لكلٍّ من ذلك أصولاً لائقة، وأوردت حججاً مناسبة، وقررت ما صادفت من آراء السلف _قدس الله أرواحهم_ بقدر ما احتملت من التقرير، مع الإرشاد على ضروب مباحث قَلّت عناية السلف بها، وإيراد لطائف مفتنة ما فتق أحد بها رتق أذن"(١).

ويقول في أول القسم الثالث من المفتاح: "اعلم أن علم المعاني: هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليُحتَرز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام، على ما يقتضي الحال ذكره"(٢).

ويقول عند تعريف الاستعارة: "هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر، مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به"(٣).

ويقول (السكاكي) عند حديثه عن أغراض التشبيه: "وإما مع حضور المشبه في أوان الحديث فيه ،مثل حضور النار والكبريت مع حديث البنفسج والرياض كما في قوله:

---

(١) مفتاح العلوم، للسكاكي، ط البابي الحلبي، ص٤.

(٢) السابق: ٩١.

(٣) السابق: ٢٠٢.

ولا زوردية تزهو بزرقتها ... بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها ... أوائل النار في أطراف كبريت

فإن صورة اتصال النار بأطراف الكبريت ليست مما يمكن أن يقال إنها نادرة الحضور في الذهن ندرة صورة بحر من المسك موجه الذهب، وإنما النادر حضورها مع حديث البنفسج فإذا أحضر إحضارا مع الشبه استطرف لمشاهدة عناق بين صورتين لا تتراءى ناراهما"(١).

ويقول في آخر علم البيان: "ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر والفضل الباهر ،لا ترى علما لقي من الضيم ما لقي ،ولا مني من سوم الخسف بما مني، أين الذي مهد له قواعده ،ورتب له شواهده ،وبين له حدودا يرجع إليها ،وعين له رسوما يعرج عليها، ووضع له أصولا وقوانين، وجمع له حججا وبراهين، وشمر لضبط متفرقاته ذيله، واستنهض في استخلاصها من الأيدي رجله وخيله، علم تراه أيادي سبا، فجزء حوته الدبور، وجزء حوته الصبا"(٢).

والكتاب برمته هكذا، فلم يكن به ضعفُ تأليف، ولا تعقيد في الكتابة _كما زعم الزاعمون.

لم يكن كتاب (مفتاح العلوم) يصعب فهمه وقراءته، لكنّ كتابة (السكاكي) في القرن السابع الهجري اختلفت عن كتابة (الجاحظ)، وعن كتابة الشيخ (عبد القاهر)، والسبب في ذلك واضح، ولا يحتاج إلى كبير احتفال، أو نقد واتهام عالم كبير بما ليس فيه.

---

(١) السابق: ١٨٩.

(٢) السابق: ٢٣١.

السبب هو تغير الزمن والتأليف، وطريقة الكتابة _كما تغيرت في عصر (الجاحظ) وعصر الشيخ (عبد القاهر)، فليس معنى عدم فهمك لأسلوب (الجاحظ) والشيخ (عبد القاهر) أن يكون ذلك عيبا في طريقة كتابة العالمين الكبيرين، وليس معنى عدم فهمك لما يكتبه العلامة (السكاكي) و(العصام) و(التفتازاني) أن هؤلاء العلماء قد عجزوا عن الكتابة حتى نتجرأ ونتهم علماء شرحوا الكافية والشافية لابن الحاجب بالخطأ اللغوي والتعقيد وضعف التأليف.

لكنّ الحقيقة التي لا مفر من ذكرها أن طريقة الكتابة والأسلوب اختلفت في هذه العصور والأزمنة، كما أن طريقة التأليف قد اختلفت، فالعيب ليس في هذه المؤلَّفات، وإنما في أنك قد قرأت الذي يروق لك، وتجنبت الذي عجزتَ عن فهمه، ليس لعيب فيه، وإنما لأنك لا تود أن تُعمِل عقلك فيه، وأن تحاول فهم هذه المؤلفات، فتزعم أنها كتبٌ صعبة الفهم، وهي ليست كذلك، لكنك أنت من عجزت عن فهمها، واستيعاب ما فيها، وادعيت أنها يشوبها التعقيد وضعف التأليف، ولو أنك قرأت فيها وتعودت على الغوص في بحارها لما قلت ذلك، ولما ادعيت ما ادعيت، بل لانقلب نقدك وذمك لها إلى مدح؛ لأنك قد حصلت على بغيتك منها، وفهمت ما فيها، وقتها ستجد هذه المؤلفات ذات قيمة، وستدرك قيمة أسلوب (السكاكي) في كتابه، وأنه ليس معقّدًا، ولا ضعيفًا _كما ادعيت، لكنّ الضعف الحقيقي عندك أنت _لو أنصفت– لأن عدم قدرتك على قراءة بعض الكتب في بعض العصور ليس عيبًا في هذه الكتب، ولا في مؤلفيها، ولكنْ في ضيق ثقافتك، وعدم التنوع في قراءاتك.

الفصل الثالث

إهمال (السكاكي) للذوق وعدم الاعتماد عليه في كتابه

إذا كان منهج (السكاكي) به خلل كبير، وكان أسلوبه جافًّا، ليس كأسلوب من سبقه، فمن الطبعي عدم اعتماده على الذوق في كتابه، وإهماله له ، هذا ما ادعاه المدعون، وحاولوا أن يُثبتوه بشتى الطرق.

فقد اتهموا صاحب المفتاح بخلو كتابه من الاعتماد على الذوق في كل ما يعن له من قضايا، فغدا تأليفه جافًّا خاليًا من كل جمال.

يقول الدكتور مطلوب :

خلا كتاب السكاكي من الاعتماد على الذوق، والتحليل الأدبي لأي قضية في كتابه، فقد كانت البلاغة حرة طليقة، تعتمد على الذوق في معالجة القضايا البلاغية، قبل أن يسيطر عليها منهج (السكاكي)، فقد كان يغلب عليها الطابع الأدبي، ويلف مباحثها روح يعتمد أول ما يعتمد على الذوق، وحسن الإدراك، وكانت للباحثين أصالتهم في التأليف، ومنهجهم الخاص بهم في البحث، فلابن المعتز منهجه وأسلوبه، ولقدامة ابن جعفر طابعه الخاص، ولأبي هلال العسكري طريقته الواضحة، ولعبد القاهر الجرجاني أسلوبه ومنهجه، ولضياء الدين ابن الأثير وجهته ورأيه في التأليف[1]. هذا ما قالوه.

ولعل هذا من العجب، أن يُتهم العلامة (السكاكي) بخلو كتابه من الاعتماد على الذوق.

---

(١) يراجع تفصيل هذا الكلام في: البلاغة عند السكاكي، د/ أحمد مطلـــوب، ص١٨، ماجستير.

وكتاب المفتاح نفسه للعلامة (السكاكي) خير شاهد على ذلك، فقد ذُكِرت لفظة (الذوق) في كتابه عشرات المرات، بنصها وبمعناها.

فقد وردت بنصها وفصها في : ص (١٣، ١٦٨، ١٦٩) ثلاث عشرة مرة، وفي ص١٧٠ وردت ثلاث مرات، ووردت مرتان في ص (٣٠، ٢٩٢).

ووردت ثلاث مرات، مرة في ص٢٣٢، ومرتان في ص ٢٤٨[١].

والكتاب برمته يعتمد على الذوق في كل المسائل التي يعرض لها ويعالجها، فاقرأ منه ما شئت، لتدرك ذلك بنفسك، وإليه بعض النصوص في مواضع متفرقة من كتاب (مفتاح العلوم) :

– يقول (السكاكي) في أول القسم الأول في علم الصرف: "وعندي أن الحكم في أنواعها ومخارجها على ما يجده كل أحد مستقيم الطبع،سليم الذوق إذا راجع نفسه واعتبرها كما ينبغي وإن كان بخلاف الغير لإمكان التفاوت في الآلات"[٢].

– ويقول في موضع آخر، حيث يشير فيه إلى شيخ البلاغيين عبد القاهر، وقبل حديثه عن علم المعاني: "وقبل أن نمنح هذه الفنون حقها في الذكر، ننبهك على أصل لتكون على ذكر منه، وهو: أن ليس من الواجب في صناعة، – وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها على مجرد العقل– أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة (الذوق) منها،

(١) يراجع مواضع ذلك في نسخة مفتاح العلوم، تعليق: نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية.

(٢) مفتاح العلوم، ص١٣، تح: نعيم زرزور.

فكيف إذا كانت الصناعة مستندة على تحكمات وضعية، واعتبارات إلفية، فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه إن فاته (الذوق) هناك، على أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك (الذوق).

وكان شيخنا الحاتمي، – ذلك الإمام الذي لن تسمح بمثله الأدوار، ما دار الفلك الدوار، تغمده الله برضوانه – يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام، إذا راجعناه فيها على (الذوق)، ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب، وصبغ بها يده، وعانى فيها وكده، وكده، وها هو الإمام (عبد القاهر) _قدس الله روحه_ في دلائل الإعجاز كم يعيد هذا"[١].

– ويقول: "وإذ قد وقفت على البلاغة ،وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية ،فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آية، أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين ما عسى يسترها عنك، ثم إن ساعدك (الذوق) أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها"[٢].

– وعند حديث (السكاكي) عن القصر، يقول عن الذوق: "فالطرق الأول الثلاث دلالتها على التخصيص بوساطة الوضع، وجزم العقل، ودلالة التقديم عليه بوساطة الفحوى، وحكم الذوق"[٣].

---

(١) مفتاح العلوم، ص٦١.

(٢) السابق، ص١٦٩.

(٣) السابق، ص٢٩٢.

- ويقول عند حديثه عن ما يدرك به الإعجاز: "فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك على هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين"(١).

هذه خمسة مواضع، تحدث فيها (السكاكي) عن (الذوق)، وأثره على فنون البلاغة، ودوره في الإعجاز، وإذا أردت أكثر من ذلك فما عليك إلا أن تفتح كتابه، وستدرك أن الصفحات لا تمر إلا وينص (السكاكي) على (الذوق) وأثره، ودرجة الاحتياج إليه في فهم النصوص وتحليلها.

- اقرأ له في باب التقديم: "وقولهم في المثل: (أتعلمني بضب أنا حرشته) شاهد صدق على ما ذكر، عند من له ذوق"(٢).

وكأنه يترك الحكم فقط للذوق في هذه المسألة، ويدرك أن من أُوتي ذوقًا سوف يتمكن من تحليل المثل، وسيتضح له قيمة التقديم بين الاسم والفعل في المثل المذكور وغيره من الشواهد.

- ويقول في آخِر باب: أحوال متعلقات الفعل: "وأمثال هذه اللطائف لا تتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني، ولمبني علم المعاني على التتبع لتراكيب الكلام واحداً فواحداً، كما ترى وتطلب العثور على ما لكل منها من لطائف النكت

(١) السابق، ص٥١٢.

(٢) مفتاح العلوم، ص٢٣٢.

مفصلة، لا تتم الإحاطة به إلا لعلام الغيوب، ولا يدخل كنه بلاغة القرآن إلا تحت علمه الشامل.

واعلم أن مستودعات فصول هذا الفن لا تتضح إلا باستبراء زناد خاطر وقاد، ولا تتكشف أسرار جواهرها إلا لبصيرة ذي طبع نقاد، ولا تضع أزمتها إلا في يد راكض في حلبتها على أنأى مدى، باستفراغ طوق متفوق أفاويق استثباتها، بقوة فهمٍ ومعونةِ (ذوق) مولعٍ من لطائف البلاغة، بما يؤثرها القلوب بصفايا حباتها، وتبثر عليها أفئدة مصاقع الخطباء خبايا محياتها، متوسل بذلك أن يتألق في وجه الإعجاز في التنزيل"[1].

وهكذا...، افتح ما شئت من صفحات كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، وحتمًا ستجده ينص على الذوق، أو يشير إليه، أو يذكره بمعناه، وستدرك أن الكتاب برمته يعتمد على الذوق في كل ما يعن من قضايا في كلام (السكاكي).

(١) مفتاح العلوم، ص٢٤٨، ط دار الكتب العلمية. ويراجع كلام أستاذنا الدكتور/ محمد شادي عن الذوق في كتاب: شرح دلائل الإعجاز، ص٣٣ وما بعدها، ط٢، ١٤٣٤هـ_٢٠١٣م، دار اليقين للنشر والتوزيع، المنصورة.

الفصل الرابع

السياق ومقتضى الحال، وعدم الاعتماد عليهما عند السكاكي

إذا كان بعض البلاغيين والنقاد قد ادّعوا – جورًا – على (السكاكي) خلوّ كتابه من الاعتماد على الذوق، وربط موضوعات الكتاب بعضها ببعض، فإنه ليس من العجب أن يجردوا (السكاكي) من اهتمامه بدور (السياق ومقتضى الحال) في دراسة الموضوعات.

ويبدو أن العلامة (السكاكي) كان يحس بذلك، فامتلأ كتابه بربط الموضوعات بمقتضى الحال، وأن لذلك أثره في كل فصول الكتاب.

= لقد بدأ صاحب (المفتاح) القسم الثالث بمقدمة، عرّف فيها بعِلمي المعاني والبيان، وإن من يقرأ تعريف العِلمين عنده، يدرك لأول وهلة أن الغرض الرئيس، هو مدى مطابقة موضوعات العِلمين لمقتضى الحال، وحاجة السياق إليهما.

- يقول (السكاكي) في تعريف علم المعاني: "اعلم أن المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"(١).

يقول (الشيرازي) في شرح مفتاح العلوم، معلقًا على كلام السكاكي: "لأن الحال كما يقتضي من جهة البلاغة أن يكون التركيب مطابقًا لمقتضى الحال إفادةً ودلالة كذلك، قد يقتضي من جهة الفصاحة أن يكون التركيب مطابقًا لمقتضى الحال تبيينًا وتزيينًا، إذ ما من واحدة من

(١) مفتاح العلوم، ص١٦١، ط: دار الكتب العلمية.

تلك المحسنات إلا وقد تكون مطلوبة في بعض الحالات، إذ لكل ساقطة لاقطة"(١).

ويعلق شارحٌ آخر للمفتاح، هو العلامة السيد الشريف، يقول بعد أن عرض تعريف السكاكي السابق: "فظهر أنه لا بد لصاحب المعاني _مع معرفة الخواص_ من معرفة كون التراكيب مستحسنة وغير مستحسنة، ليتمكن من إيراد تراكيبه منطبقة على ما ساقها لأجله، ومستحسنة في مواقعها، ومن حمْل كل تركيب يرد على ما لا يليق بحال المتكّلم. فإن البلغاء _أيضًا_ على درجات متفاوتة، فربما يستحسن كلام في مقام من بليغ فيحمل على دقائق جمة، ولا يستحسن مثله في ذلك المقام من آخر دونه في البلاغة، فلا يحمل عليها، بل على ما يناسب منها مرتبته"(٢).

ثم يقول: "والحال هو: الأمر الداعي إلى إيراد الكلام على وجه مخصوص وذلك الوجه مقتضى الحال، وتطبيق الكلام على مقتضاه: إيراده مشتملا عليه، فإنكار المخاطب مثلا أمر يقتضي تأكيد الخبر لرده. فالإنكار حال، والتأكيد مقتضاه، وتطبيقك لكلامك عليه إيراده مؤكدا ولكلام غيرك حمله على خواص تناسب ما فيه من مقتضيات الأحوال، وسيرد عليك إن شاء الله _تعالى_ مزيد تفصيل لهذا المقام.

---

(١) شرح مفتاح العلوم للشيرازي، تح: أ.د/ نزيه فراج، ص٤٧.

(٢) شرح مفتاح العلوم للسيد الشريف، (المصباح)، تحقيق أستاذنا العلامة: أ.د/ فريد محمد بدوي النكلاوي، ص٦.

ثم الخطأ في تطبيق تراكيب الكلام: إما لعدم معرفة خواصها، وإما لعدم المعرفة بأن تلك التراكيب تستحسن مِن مَن؟ أو مع من؟ فتأمل"[١].

ويقول العلامة التفتازاني، في شرح مفتاح العلوم: "والمراد بالحال _كما ذكر السكاكي: الأمر الداعي إلى إيراد المتكلم على كيفية وخصوصية مناسبة، من حيث كونها منه بمنزلة وقت وزمان للكلام، وإن اعتبر من حيث كونه بمنزلة محل ومكان سُمّي مقامًا.

ومقتضى الحال في الظاهر هو تلك الكيفية والخصوصية، وفي التحقيق: الكلام المشتمل عليها، ولذا قال: على ما يقتضي الحال ذكره، فإن المذكور حقيقة هو الكلام ،لا الحذف أو التقديم أو التعريف، أو نحو ذلك.

ومعنى: تطبيق الكلام على مقتضى الحال: جعله مطابقًا له، بحيث يصدق هو عليه صدق الكلي على الجزئي؛ لاشتماله على تلك الخصوصية"[٢].

وقد ظل العلامة (السكاكي) وشراح المفتاح يتحدثون عن مقتضى الحال والمقام، وشرح ذلك، وتفصيل الكلام عند الكلام عن تعريف علم المعاني، وبيان أسباب اقتضاء المقام لهذا وذاك.

فالعلامة (السكاكي) يبعث برسالة من أول سطر من سطور حديثه عن القسم الثالث للكتاب، وهو الذي يبدأ فيه بتعريف علم المعاني.

---

(١) شرح مفتاح العلوم للسيد الشريف، (المصباح)، تح: أ.د/ فريد محمد بدوي النكلاوي، ص٧. ويراجع: شرح المفتاح، لحسام الدين المؤذني: ٢/ ٣، مخطوط رقم: ١٤٩/ ٤٣٦٠.

(٢) شرح مفتاح العلوم للتفتازاني، لوحة رقم: ٥، تحت رقم: ٢٣٥٢/ ٥٦٩٤٢ بلاغة.

= أقول: كأني به يشير من أول وهلة أن أبواب كتابه وفصوله ،الأصل فيها هو السياق والمقام ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، وأن ذلك يمكن تطبيقه على باقي أبواب كتابه.

ولذا نجده بعد أن عرّف (علم المعاني) تلاه بعدها بسطور بتعريف علم البيان، وهاك عبارته: "وأما علم البيان: فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"(١).

ويقول في الفصل الأول تحت عنوان: (في ضبط معاقد علم المعاني والكلام فيه):

"اعلم أن مساق الحديث يستدعي تمهيدًا، وهو أن مقتضى الحال عند المتكلم يتفاوت كما ستقف عليه"(٢).

= وتحت عنوان: (لكل مقام مقال): يقول (السكاكي): "ولا يتضح الكلام في جميع ذلك اتضاحه إلا بالتعرض لمقتضى الحال... ولا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة... فإذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام ،ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام ،وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال : إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف

(١) مفتاح العلوم: ١٦٢.

(٢) السابق: ١٦٣.

ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة ،وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب.

= وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره ،وإن كان المقتضى إثباته مخصصاً بشيء من التخصيصات ،فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدم ذكرها ،وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع أخرى : فصلها ،أو وصلها ،والإيجاز معها أو الإطناب – أعني طي جمل عن البين ولا طيها – فحسن الكلام: تأليفه مطابقًا لذلك وما ذكرناه حديث إجمالي لا بد من تفصيله، فاستمع لما يتلى عليك بإذن الله"(١).

وكأن (السكاكي) بذلك يجعل كل أبواب كتابه تتكئ على المقام، ودور السياق ومقتضى الحال في ذلك.

يظهر هذا من عبارته الأخيرة: "وما ذكرناه حديث إجمالي، لا بد من تفصيله".

ويعلق السيد الشريف في شرح المفتاح على قول (السكاكي) السابق: "ثم إذا شرعت في الكلام، فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام.

(١) مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور: ١٦٨. ويراجع: شرح المفتاح للشـــيرازي: ١٠٦ وما بعدها.

والمعنى: أن المسند إليه إذا أريد ضمه إلى المسند، فله مقام يقتضي تعريفه أو تنكيره إلى غير ذلك.

وكذا المسند وما يتعلق بهما، وكذا الجملة إذا أريد ضمها إلى الأخرى، فلها مقام يقتضي فصلها أو وصلها. وقوله: (ولكل حد) أي: ولكل مرتبة من مراتب الإيجاز والإطناب يصل إليها الكلام مقام يقتضيها ، وإنما أفرد الإشارة إلى ذلك _مع إدراجه في الفن الرابع؛ لأنه في نفسه باب برأسه.

ويقول السيد الشريف _أيضًا: " لما أشار إلى المقامات المقتضية لفنون الاعتبارات الأربعة رغب في الاعتناء بها، فقال: (ارتفاع شأن الكلام)، أي: الكلام الذي يعتد به، ولا يعد من أصوات الحيوانات في باب حسنه الذاتي، وكونه مقبولا عند النّقاد، وانحطاطه في ذلك الباب بقدر مصادفة المقام لما يليق به من الاعتبارات والكيفيات، فكلَّما كانت المصادفة أتمَّ وأوفر كان حسنه وقبوله أكمل وأكثر، وكلما كانت المصادفة أنقص كان حسنه أقل. قوله: (وهو) أي ما يليق بالمقامات من الاعتبارات هو الذي نسميه مقتضى الحال"(١).

واهتمام (السكاكي) بالسياق وما يقتضيه الحال وتأثير ذلك على أبواب كتابه واضح غير مستتر، ولو شئت فلتقرأ الكتاب برمته، ستجده كثيرًا ما ينص على ذلك، ويؤكد عليه.

يقول (السكاكي) في مطلع حديثه عن الفن الثاني، (في تفصيل اعتبارات المسند إليه): "لما تقرر أن مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق

(١) شرح مفتاح العلوم للسيد الشريف، تح: أ.د/ فريد النكلاوي، ص٥٤.

تركيبه على مقتضى الحال، وعلى لا انطباقه، وجب عليك – أيها الحريص – على ازدياد فضلك، المنتصب لاقتداح زناد عقلك، المتفحص عن تفاصيل المزايا التي بها يقع التفاضل، وينعقد بين البلغاء في شأنها التسابق والتناضل = أن ترجع على فكرك الصائب، وذهنك الثاقب وخاطرك اليقظان ،ولانتباهك العجيب الشان، ناظرا بنور عقلك وعين بصيرتك في التصفح لمقتضيات الأحوال، في إيراد المسند إليه على كيفيات مختلفة وصور متنافية حتى يتأتى بروزه عندك لكل منزلة في معرضها فهو الرهان الذي يجرب به الجياد والنضال الذي يعرف به الأيدي الشداد، فتعرف أيما حال يقتضي طي ذكره، وأيما حال يقتضي خلاف ذلك، وأيما حال يقتضي تعرفه ... وأيما حال يقتضي تنكره"(١).

فحُسن الكلام وقبحه راجع إلى مطابقته لمقتضى الحال، أو عدم مطابقته. ولعل الملاحظ من كل كلام (السكاكي) هو عدم حصر المطابقة وعدمها على (علم المعاني)، وإنما تشمل علوم البلاغة جميعها.

وهذا ما جعل أستاذنا الدكتور/ محمد شادي يقول: "إن التشابك بين العلوم يحدونا إلى التذكير بأن المطابقة لمقتضى الحال ليست وظيفة علم المعاني وحده، لكنها غاية علوم البلاغة كلها.

فإن الاستعارة والتشبيه والكناية والتعريض، والسجع والجناس والطباق، والتعريف والتنكير، والإيجاز والإطناب... لا يُعتد ببلاغتها ما لم تحقق المطابقة لمقتضى الحال.

(١) مفتاح العلوم: ١٧٥.

وهذا ما فطن إليه (السكاكي)، إذ يرى وهو يعرض هذه العلوم أن مسألة المطابقة غاية أساسية لكل علم في حدود مجاله وهدفه.

فعلم المعاني هو: تتبع خواص التراكيب في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان؛ ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره.

وعلم البيان: معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه والنقصان؛ ليحترز بالوقوف على ذلك من الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"(١).

كان (السكاكي) _والكلام للدكتور شادي_ يقصد بالمطابقة في علم المعاني: مطابقة الكلام لما يقتضيه حال المخاطب، ويقصد بها في علم البيان: مطابقة الكلام لتمام مراد المتكلم، وعُد إلى عبارته فهي نصٌّ في هذا.

فالمطابقة في علم المعاني تعني: مجيء التراكيب على كيفيات تناسب أحوال المخاطبين.

والمطابقة في علم البيان تعني: أن يأتي المتكلم بالطرق التعبيرية التي تستوجب مراده استيعابًا تامًّا وواضحًا.

ويمكن أن يتسع هذا المعنى في الشعر والنثر، لتصبح غاية البيان فيهما هي: الاستيعاب التام للطاقات الفكرية والشعورية عند المبدعين"(٢).

---

(١) أساليب البيان والصورة القرآنية، لأستاذنا أ.د/ محمد شادي، ص١١. ومفتاح العلوم: ١٦١.

(٢) أساليب البيان والصورة القرآنية، أ.د/ محمد شادي، ص١١.

على أن بعض الشراح كالدسوقي والسبكي يفسران تعريف السكاكي للبيان بما يجعل غايته كفاية المعاني، في مراعاة حال المخاطب، مع أن السكاكي يتجه بالمطابقة في البيان ناحية المتكلم.

ولا يمكن أن نغفل السكاكي حقه، إذ نبه في تعريف علم البيان إلى أن مراعاة حال المتكلم وظيفة أساسية لهذا العلم.

وحاصل ما سبق: أن علم البيان واحد من علوم البلاغة، وهي علوم متصلة متفاعلة، لم يَفصل بينها غير الدرس والتحليل النظري.

وذهاب كل علم بوظيفة معينة كالبيان بالتصوير، والمعاني بأحوال التراكيب من جهة المطابقة لمقتضى الحال، والبديع بالتحسين والإيقاع، هذا لا يعني انفصال تلك العلوم واستقلالها.

فالحق أن تلك الوظائف الثلاث تتحقق بكل علم؛ لأنها عناصر وأجزاء لكل مكتمل، وإنما يذهب كل علم بالأغلب فيه من الوجهة النظرية، أما عند النقد، وعند مواجهة النصوص، فلا مفر من استحضار مقاييس تلك العلوم وثمراتها للاستضاءة بها في التقويم والتحليل والحكم على الأسلوب"[1].

وأيما كان الأمر، فإن للسكاكي في كتابه الفضل الأكبر في إدراج المطابقة لمقتضى الحال في علوم البلاغة، وعدم الفصل بينها، والإشارة إلى ذلك في جميع أبواب كتابه ومسائله.

(١) أساليب البيان والصورة القرآنية، ص١٣، ١٤.

الفصل الخامس

تقعيد البلاغة، وحصرها في قوالب جافة

لا تكاد تقرأ كتابًا في العصر الحديث إلا وتجده يستدرك على (السكاكي) أنه قد أخطأ حين وضع البلاغة في قواعد، بل وقد زاد من خطأ (السكاكي) وجُرمه في حق البلاغة أن هذه القواعد جاءت جافة، خالية من جمال الصياغة الأدبية.

ويمكن أن نكون منصفين حين نتذكر _فحسب_ العصر الذي ألف فيه (السكاكي) كتابه، وطريقة التأليف والكتابة وقتها.

فقد وُجِد (السكاكي) في عصر فرض عليه هذا النوع من التأليف، فقد عاصر العلامة (حازم القرطاجني ت٦٨٤هـ)، صاحب كتاب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، و(الإمام الرازي ت٦٠٦هـ)، والعلامة (قطب الدين الشيرازي ت٧١٠هـ)، أحد شراح المفتاح بعد ذلك، وغيرهم من العلماء.

يقول محقق الكتاب عن الكتب التي سبقت تأليف المفتاح: "كل هذه الأعمال كانت تتناول المسائل البلاغية والجمالية، وكانت إلى ذلك إرهاصات تُبشر بظهور قواعد علم طال انتظاره، وكانت بدايته مع قدامة والجاحظ، ثم تتبلور مع أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) في كتاب الصناعتين؛ لأنه كان أول كتاب يحمل في تبويبه وطريقة بحثه ملامح تباعده عن كتب النقد، وتقربه من كتب البلاغيين اللاحقين، وأول محاولة ناجحة أتى بها (عبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ)، في كتابيه (دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، وبهما أصبح بحق إمام البلاغيين، ويكفي

القول: إنهما الأساس الذي عليه أسس (السكاكي ت٦٢٦هـ) قواعد القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) في البلاغة، بعد الاستفادة من التلخيص الذي وضعه (الرازي ت٦٠٦هـ) على كتابي الجرجاني، والمسمى: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)"[1].

وما قاله محقق الكتاب حق وصدق لا مفر من الاعتراف به، فقد كانت المسائل البلاغية قبل (الرازي) متناثرة ومتفرقة في الكتب والمراجع، إلى أن جاء (الرازي) وقرأ كتابي الشيخ (عبد القاهر الجرجاني (الدلائل والأسرار)، وحاول تلخيص الكتابين في كتابه: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، لكنّ هذه المحاولة لم يستفد منها من جاء بعد الشيخ، ولم تُغن عن كتابي الشيخ الإمام.

ويمكن أن يكون سبب ذلك : أن الإمام (الرازي) قد اختار كتابين لا يجب تلخيصهما، ولا العبث بمادتهما العلمية؛ فقد تميز الشيخ (عبد القاهر) في كتابيه بطريقة عرضه وأسلوبه المميز، ومعالجته لقضيتي النظم والإعجاز القرآني معالجة جيدة.

وأسلوب الشيخ في كتابيه حسن في مجمله، وجيّد بالطريقة التي تناول بها الإمام القضايا البلاغية فيه.

ولذا فإن من العبث أن نحاول تلخيص الكتابين، معتقدين أن هذا التلخيص سيغنينا عن قراءة الكتابين.

---

(١) مقدمة محقق كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، ص: ج، للأستاذ نعيم زرزور، ط: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٧هـ_١٩٨٧م.

وهذا لم يحدث، فقد بقي (الدلائل والأسرار) كما هما، وبقيت محاولة (الرازي) كما هي، أما عمل (السكاكي) فقد اختلف تمامًا، حيث لم يقم بتلخيص كتابي (عبد القاهر) فحسب _كما فعل الرازي _ وإنما قام بقراءة ما كتب عن البلاغة والنقد قبله حتى القرن السابع، الذي ألف فيه (السكاكي) كتابه مفتاح العلوم.

بل قام (السكاكي) بأهم من ذلك، وهو حصر هذه المسائل في أبواب وفصول بدقة غير مسبوقة، مما جعل علمًا من أعلام البلاغة في العصر الحديث، وهو أستاذنا العلامة: د/ أبو موسى، يقول عن تأليف المفتاح ودقة (السكاكي) في وضع القواعد التي حفظت لنا هذا العلم، يقول:

"وأعود إلى (السكاكي) الذي كان غاية في قدرته على ضبط معاقد المعرفة، وأظهر ما كان منه أنه رأي كتاب (دلائل الإعجاز)، مؤسسًا على مباحث لم تكن هذه المباحث ممسكًا بعضها ببعض، على الوجه الذي يرضاه".

ويقول في موضع آخر: " ثم جاء (أبو يعقوب)، وهو عقل آخر، كأن ضبط المعاقد يجري في لحمه ودمه، فوضع لعلم المعاني أبوابًا ثمانية، لا يزال العلم عنوانًا لها إلى يوم الناس هذا".

ويقول في موضع ثالث: "وقد انتهى (أبو يعقوب) إلى ضبط معاقد كتابه، الذي قاوم الدهور والأمكنة والأجيال، حتى انتهى إلينا، وصار عليه المعول في دراسة هذا العلم في معاهدنا وجامعاتنا ومؤلفاتنا"[1].

(١) ينظر تفصيل ذلك في: المسكوت عنه في التراث البلاغي، أ.د/ محمد محمد أبو موسى ص١٥٣ وما بعدها.

ونعود إلى كلام محقق المفتاح، حيث يقول: "لم يقتصر عمل (السكاكي) على ما في كتب (الجرجاني)، بل استدرك ما فات (عبد القاهر)، وتمم ما بدأه من تمييز الأنواع الملتبسة، وتقرير القواعد التي جعلت من البلاغة علمًا ثابت الأصول، بعد أن رتب المسائل وبوبها تبويبًا، جعلها أقرب إلى الدقة والإحكام.

والملاحظ أنه حاط بحوثها بالجدل والفروض الخيالية، واستند إلى العقل في استنباط القواعد التي يجب استمدادها من الشواهد العربية المختارة.

ثم يقول: "إذن كان عمل (السكاكي) أشمل، فقد أحاط بكثير من قواعد البلاغة المبعثرة في الأمهات، وبعد الترتيب والتبويب فصّل فنون البيان، وذلك لسعة اطلاعه وتمكنه من علوم المنطق والفلسفة، واهتمامه بهما إلى حدّ جعل أسلوبه جافًّا، فاستغلق فهمه في أكثر الأحيان على غير المتعمقين"(١).

هذا ما قاله محقق الكتاب، ونعود إلى قوله: "إلى حدّ جعل أسلوبه جافًّا، فاستغلق فهمه في أكثر الأحيان على غير المتعمقين".

ونقول للمحقق: لقد ألّف (السكاكي) كتابه للمتخصصين، وأراد منه توضيح كل صغيرة وكبيرة سبقته عن البلاغة، فإذا جاء أسلوبه أحيانًا جافًّا عند تحديد القواعد _كما تزعم_ فهو لم يشذ عن طريقة التأليف في عصر، وعن أسلوب الكتابة في القرن السابع الهجري آنذاك.

---

(١) مقدمة محقق كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، ص: ج، د .

وإذا لم يكن للسكاكي من حسنات عند حصره ووضعه المسائل البلاغية في قواعد سوى الحفاظ على بلاغة الشيخ (عبد القاهر) لكفاه ذلك.

يقول أستاذنا الدكتور/ محمد شادي في كتابه (أساليب البيان): "وحاصل القول: أن القواعد البلاغية لا تكفي وحدها لتنمية الملكات الأدبية"(١).

وهذه حقيقة يجب الأخذ بها، أنها وحدها لا تكفي، وإنما تعلمنا البلاغة، ومعرفة القواعد أصل في التعليم، ولولا معرفة قواعد النحو ما تعلمنا النحو، وهكذا.

و(السكاكي) حين وضع القواعد للبلاغة أراد الضبط الدقيق لمسائلها.

ولم يكن وضع (السكاكي) لهذه القواعد إلا بعد أن هضم واستوعب كل ما كُتب قبله، وقد كان اهتمامه بكتابي (عبد القاهر) شديدًا؛ لأنه يعلم أنه من أفضل من تكلموا عن البلاغة التطبيقية، وأنه عالج قضيتي النظم والإعجاز عن طريق المسائل البلاغية.

(١) أساليب البيان والصورة القرآنية، أ.د/ محمد شادي، ص٢٨.

الفصل السادس

قلة الشواهد البلاغية عند السكاكي واعتماده في كتابه على الأمثلة المصنوعة

كعادة بعض النقاد والبلاغيين الذين حاولوا التقليل من جهد العلامة (السكاكي) في كتابه؛ بالبحث عن كل التهم التي يحب أن يلصقوها به.

= ذكر كثير من هؤلاء أنه مما يجب أن يُتهم به (السكاكي) ويُنسب إليه في كتابه: (قلة الشواهد البلاغية عنده واعتماده في كتابه على الأمثلة المصنوعة فحسب).

وكأني بهؤلاء العلماء لم يُكلفوا أنفسهم عناء البحث، ومحاولة قراءة كتاب (المفتاح)، حتى يتسنى لهم أن يتهموا (السكاكي) بهذا الاتهام.

أكاد أزعم أن هؤلاء النقاد والبلاغيين لم يقرأوا كتاب (المفتاح)، بل لم يقوموا بتصفحه، أو حتى قراءة فصل أو باب من أبواب كتابه.

نقول ذلك لأن اتهامهم وكلامهم الذي نسبوه إلى كتاب (السكاكي) عارٍ تمامًا من الصحة.

ولعل ما جعل بعضهم ينخدع ويتهم (السكاكي) بما اتهمه به هو عثور هؤلاء النقاد والبلاغيين على بعض الأمثلة المصنوعة في كتاب (السكاكي).

وكعادتنا لا نقول كلامًا ندافع به عن العلامة (السكاكي) لمجرد الدفاع والسفسطة، دون دليل كغيرنا، ولكن ندعم ما نقوله دومًا بالدليل النقلي والعقلي، وأعني بالدليل العقلي: هو تفسير إقحام (السكاكي) لبعض

الأمثلة المصنوعة في كتابه، والسر في ذلك، وهل كان لوجودها فائدة، أو هي مجرد حشو ملأ به (السكاكي) صفحات كتابه.

أما الدليل النقلي الذي ندافع به عن (السكاكي) لتقليله من الشواهد البلاغية في كتابه، واعتماده على الأمثلة المصنوعة- على حد قولهم - فيكفي أن نقول: إن عدد الشواهد البلاغية في كتاب المفتاح (٤٩٢) شاهدًا، منها (٣٢٩) شاهد قرآني، وعدد (١٦٣) شاهد شعري.

أما الأمثلة المصنوعة في كتابه فعددها (١٢٤) شاهد مصنوع. وهذا يدلنا دلالة قاطعة على أن اعتماد (السكاكي) كان على الشواهد القرآنية، ثم الشواهد الشعرية، وأخيرًا الأمثلة المصنوعة.

ومن يفتح كتاب (مفتاح العلوم) سيدرك اعتماده على الشاهد القرآني بصفة كبيرة، كما هو موضح من هذه الإحصائية.

و(السكاكي) في اختيار شواهده لم يشذ عن سابقيه، بل نقل أكثرها عن شيخه (عبد القاهر الجرجاني)، و (الجاحظ)، و(الآمدي)، و(العسكري)، و(ابن سنان)، وغيرهم من العلماء الذين سبقوه.

فقد اعتمد (السكاكي) عند اختيار شواهده على الكتب الأدبية والنقدية التي سبقته، واعتمد في اختياره للشواهد القرآنية على الكتب التي كانت تعالج قضايا الإعجاز القرآني وأسبابه.

وأنت حين تقرأ كتابه ستجده يعتمد على تلك الكتب إلا في القليل النادر.

وهو كتاب في مجمله جهد عملاق لصاحبه، الذي استطاع بعبقريته أن يختار الشواهد التي تنطبق على القاعدة التي وضعها.

واختيار (السكاكي) لهذه الشواهد _القرآنية والشعرية_ لم يكن بالأمر الهيّن، كما يدور في خُلد البعض، ولكنها مهمة صعبة، وجهد شاق لا يؤتَى لكل أحد.

ومع ذلك نجد له شواهد تفرّد بها، وهي كثيرة، يمتلئ بها كتابه. لكنّ مجرد اختيار بعض الشواهد القرآنية والشعرية من الكتب وصبها في قواعد بلاغية تناسب المنهج الذي اختاره السكاكي _أمر شاق، وجهد كبير ليس من السهولة فعله.

لكنّ العلامة (السكاكي) قد قرأ ما كُتب قبله في شتى أنواع المعرفة، بل وهضمه، واستوعب ما فيه، ثم استطاع بذكائه أن يضع الشاهد الذي يناسب القاعدة التي صنعها، بحيث لم يختل تأليفه، ولم يستطع كل من أتى بعده أن يضيف جديدًا، بل هي مجرد محاولات لنقده باءت كلها بالفشل.

وهذا جعل أستاذنا الدكتور/ محمد أبو موسى يقول: "مع احتفاظه بضبط المعاقد الذي انتقي إليه (أبو يعقوب)، والذي قاوم الدهور والأمكنة والأجيال، حتى انتهى إلينا، وصار عليه المعول في دراسة هذا العلم في معاهدنا وجامعاتنا ومؤلفاتنا"، كما ذكرنا من ذي قبل.

لقد كان العلامة (السكاكي) بارعًا في اختياره شواهده القرآنية والشعرية _وهي كثيرة جدًّا، تفوق الحصر_ كما ذكرنا.

أما إقحامه لبعض الأمثلة المصنوعة _إن صح التعبير_ في كتابه، وهي قليلة جدّا بمقارنتها بالشواهد الشعرية والقرآنية _كما قلنا، فلعل ذلك يرجع إلى: أن كتاب (السكاكي) (مفتاح العلوم)، هو _وكما يظهر من

اسمه_ هو كتابٌ تعليمي، ومفتاح لتعليم الصرف والنحو والبلاغة، واستطاع صاحبه أن يجمع كل ما كُتب قبله بعد أن قرأه، واستوعب ما فيه وهضمه.

ثم وضع كتابًا جعله مفتاحًا لكل العلوم العربية، وقد استدعى ذلك منه أن يضع منهجًا يسير عليه، وخطة محكمة، وكان بارعًا في جمعه الشواهد من هنا وهناك، وقد تنوعت هذه الشواهد عنده بين شعرية وقرآنية _كما أوضحنا من ذي قبل.

لكن توضيح بعض القواعد وتفسير بعض الظواهر اللغوية كان يستدعي ويتطلب أن يُعضد هذه الشواهد بأمثلة مصنوعة توضح المسألة البلاغية، وتُفسر الظاهرة البلاغية بطريقة أبسط، لكنّ ذلك كله لم يجعله يُهمل الشاهد القرآني والشعري، بل إنهما عنده الأصل الذي بَنى عليه القاعدة.

أما هذه الأمثلة المصنوعة فمعظمها تم نقله عن كتابَي الأسرار والدلائل، حيث يقول: "وأما الاعتبار الراجع على المسند إليه في التركيب من حيث هو مسند إليه، من غير التعرض لكونه حقيقة أو مجازا فككونه محذوفًا، كقولك: عارف، وأنت تريد: زيد عارف"(١).

لكن مما يجب التنبيه إليه أن استشهاده ببعض الأمثلة المصنوعة كان يعقبه شاهد قرأني أو شعري _في الغالب.

خذ مثلاً لذلك، يقول في فصل (الخبر الإنكاري)، تحت باب: (الفن الأول: في تفصيل اعتبارات الإسناد الخبري): "وإذا ألقاها إلى حاكم فيها

(١) مفتاح العلوم: ١٦٨، ط دار الكتب العلمية.

بخلافه، ليرده إلى حكم نفسه، استوجب حكمه ليترجح تأكيداً بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده، كنحو: إني صادق، لمن ينكر صدقك إنكاراً، وإني لصادق لمن يبالغ في إنكار صدقك، ووالله إني لصادق على هذا، وإن شئت فتأمل كلام رب العزة _علت كلمته (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون .قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) [1]، حيث قال أولاً: إنا إليكم مرسلون، وقال ثانيًا: إنا إليكم لمرسلون، كيما يقرر ما ألقى إليك، ويُسمَّى هذا النوع من الخبر إنكارياً"[2].

ويقول في موضع آخر: "وإخراج الكلام في هذه الأحوال على الوجوه المذكورة يسمى: إخراج مقتضى الظاهر، وأنه في علم البيان يسمى بالتصريح _كما ستقف عليه.

والذي أريناك إذا أعملت فيه البصيرة استوثقت من جواب (أبي العباس) للكندي، حين سأله، قائلاً: إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، والمعنى واحد، وذلك أن قال بل المعاني مختلفة، فقولهم، عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه"[3].

---

(١) سورة: يس، (١٤_١٦).

(٢) مفتاح العلوم: ١٧١، ط دار الكتب العلمية.

(٣) مفتاح العلوم: ١٧١.

ويقول في تنكير المسند إليه: "وأما الحالة التي تقتضي تنكيره، فهي إذا كان المقام للإفراد شخصًا، أو نوعًا، كقولك: جاءني رجل، أي: فرد من أشخاص الرجال، وقوله تعالى: (والله خلق كل دابة من ماء)[١]، أي: من نوع من الماء، مختص بتلك الدابة، أو: من ماء مخصوص"[٢].

وهكذا الكتاب برمته يستشهد (السكاكي) بشاهد قرآني، أو أبيات من الشعر إن كانت واضحة لا تحتاج إلى تفسير، أو يوضح ذلك بكلام من إنشائه لتفسير الآية أو البيت الشعري، وأحياناً كثيرة يفعل فيذكر المثال ثم يُثني ذلك بالشاهد القرآني والأبيات من الشعر، وحتى في استشهاده لبعض الأمثلة المصنوعة التي توضح القاعدة البلاغية، أو المسألة اللغوية، فقد كان يتخير هذه الأمثلة المصنوعة، متكئًا في كثير من الأحيان على العلماء قبله، وفي مقدمتهم شيخه (عبد القاهر الجرجاني).

ويمكن تلخيص القول : أن كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي هو كتاب شامل وزاخر بالشواهد اللغوية والبلاغية على تنوعها.

(١) سورة النور: ٤٥.

(٢) مفتاح العلوم: ١٩١.

الفصل السابع

تذييل (البديع) علوم البلاغة لأنه عرضي

لعل من أكثر الأمور التي تثير العجب، أن يدّعي بعض البلاغيين على (السكاكي) تذييل (البديع) علوم البلاغة الثلاثة: (المعاني والبيان والبديع).

واتهام (السكاكي) اتهامًا صريحًا بأنه جنى على (علم البديع)؛ لأنه بهذا يجعله عرضيًّا ، وليس كأخويه (المعاني والبيان).

وقد دلل هؤلاء على ذلك بموضع (علم البديع) ومكانه وترتيبه في كتاب (مفتاح العلوم)، حيث إن (السكاكي) _على حدّ قولهم_ ذكره ثالثًا، وذيّل به علوم البلاغة الثلاثة.

وقد ذكر هؤلاء أن (السكاكي) بما فعله قد جنى على علم البديع، حين ذيّل به علوم البلاغة، وحين حكم عليه أنه عرضيّ.

وحين قرأتُ ما كتبه هؤلاء البلاغيون _وهم كثر_ أدركت أنهم لم يطّلعوا على كتاب (مفتاح العلوم)، ولم يقرأوا ما فيه، لكن يمكن أن يُقال _وحتى لا نظلمهم_ ما هم إلا قوم تصفحوا كتاب (المفتاح) واطلعوا على فهرس الكتاب فقط.

بل أكاد أُجزم أن أكثر من اتهم (السكاكي) بهذه التهمة لم يطلع على كتاب (المفتاح)، بل لم يتصفح فهارس الكتاب كغيره، لكنه أضاف إلى جناياته جناية أخرى باعتماده فحسب على ما كتب حول كتاب (المفتاح)، وسار خلف من قالوا ذلك، مصفقًا لهم دون أن يُكلف نفسه عناء البحث والتنقيب عن الحقيقة.

لا نقول ذلك من باب التطاول على أحد أو الغمز به، لكن يحز في نفسي أن نتهم العلماء _ في تبجح _ دون أن نهتم بمراجعة ما كتبوه، وفحص ما سطروه.

ولعل العلامة (السكاكي) لم يترك مجالاً للاجتهاد في فهم كلامه وتأويله، وتحميل نصوصه دلالات لا يتحملها، وإليك توضيح ذلك، لتدرك أني حين قلت : إن من اتهم العلامة (السكاكي) بما اتهمه به لا يرقى إلى درجة باحث صغير، بل هو باحث بدأ حياته مبكرًا بالفشل، حين أصر على النقل فحسب، والاعتماد على ما كُتب حول (السكاكي)، دون قراءة كتاب (المفتاح).

لقد حاول كثير من كُتاب العصر الحديث تنفير الأجيال من كتاب (السكاكي)، وما كُتب حوله من شروح، فجعل بعض من يحاول دراسة كتاب (السكاكي) يكتفي بنقل نصوص متفرقة عن هؤلاء الذين أضرّوا بالبلاغة بهذا.

ويمكن أن نقول _ مطمئنين _ أنه لا يوجد عند العلامة (السكاكي) ما يُسمى بـــ(علم البديع)، وأن كلمة (بديع) لم تُذكر في كتاب (مفتاح العلوم) سوى مرتين، وليس المقصود بها (علم البديع) الذي استقر عليه البلاغيون، وإنما المراد منها: المعنى اللغوي فقط، وهو (الشيء العجيب والجميل)[1].

يقول (السكاكي) في أحد الموضعين، في باب الفصل والوصل: "وإن خاتمي هذا سيئ الصياغة، كريه النقش فاسد التركيب رديء في غاية

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ١٩١، ٢٧٠. ط: دار الكتب العلمية.

الرداءة، ويقول آخر: وإن خاتمي بديع الشكل خفيف الوزن لطيف النقش"[١].

وإذا أردت شاهدًا على أن علم البديع ليس مذكورًا في كتاب (مفتاح العلوم) حتى يكون ذاتيًّا أو عرضيًّا _كما ادعى البعض_ فما عليك إلا أن تفتح القسم الثالث من كتاب (مفتاح العلوم)، وتتعب نفسك في قراءة أول سطر، حيث يقول: " القسم الثالث من الكتاب في علمي المعاني والبيان، وفيه مقدمة لبيان حدي العلمين والغرض منهما وفصلان لضبط معاقدهما، والكلام فيهما"[٢].

وإذا أردت أن تجتهد في فهم كلام العلماء وقراءة مؤلفاتهم والصبر على استخراج ما فيها، فعليك أن تقرأ (القسم الثالث) من (مفتاح العلوم)، وستدرك أن (السكاكي) قد ذكر عبارة: (علمي المعاني والبيان) مرات، ولم يُشر من قريب أو بعيد إلى (علم البديع)؛ لأنه لم يكن قد ظهر عنده هذا التقسيم الذي اتضح بعد ذلك عند الإمام (بدر الدين ابن مالك) في كتابه (المصباح)، والعلامة القزويني، في كتابيه (تلخيص المفتاح، والإيضاح).

فإذا كنت منصفًا فلا مفر من الاعتراف بذلك، بدلاً من الهجوم على (السكاكي)، وهو يعد من أفضل من صنفوا في البلاغة، بل هو حجر الأساس الذي كتب في البلاغة.

وإليك بعض النصوص التي تؤكد أن علم البلاغة عند (السكاكي) (معانٍ وبيان)، حيث يقول في مقدمة كتابه: "وقد ضمنت كتابي هذا من

---

(١) مفتاح العلوم: ٢٧٠.

(٢) مفتاح العلوم: ١٦١.

أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه، وهي عدة أنواع متآخذة، فأودعته: علم الصرف بتمامه، وإنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق، وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بـــ(علمي المعاني والبيان)" (١).

ويقول: "وحين كان التدرب في علمي المعاني والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر، ورأيت صاحب النظم يفتقر إلى علمي العروض والقوافي = ثنيت عنان القلم إلى إيرادهما"(٢).

ويقول _أيضًا: "وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف، القسم الثاني في علم النحو، والقسم الثالث في علمي المعاني والبيان"(٣).

ويقول في موضع آخر: "وإذ قد تحققت أن علم المعاني والبيان: هو معرفة خواص تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني؛ ليتوصل بها على توفية مقامات الكلام حقها، بحسب ما يفي به قوة ذكائك"(٤).

وهنا يعرض سؤال، هو: أين علم البديع الذي أهمله (السكاكي) وفصله عن أخويه وهضمه حقه، وجنى عليه، وذيل به البلاغة، وجعل تحسينه عرضيًّا، خارجًا عن البلاغة _كما يزعم الزاعمون، ويدعي المدعون.

---

(١) مفتاح العلوم: ٣، ٤. ط البابي الحلبي.

(٢) السابق: الصفحة نفسها.

(٣) مفتاح العلوم: ٥. ط البابي الحلبي.

(٤) مفتاح العلوم: ٢٣٦.

العلامة (السكاكي) كرر في أكثر من ستة مواضع أن البلاغة معان وبيان، ولو صح ما قالوه _وهو لا شك غير صحيح_ فلِمَ لم يقل: (معان وبيان وبديع)؟! وما الذي منعه من ذلك؟

ولقد تعجبت كثيرًا حينما ألفيت محقق كتاب (مفتاح العلوم) يُعنون لفقرة من الكتاب بـــ(علم البديع)، هكذا يحملون عبارات (السكاكي) دلالات لم يردها ولم يقصدها.

أليس هذا من العجيب أن لا يذكر (السكاكي) عبارة: (علم البديع) ولو مرة واحدة في كتابه، ثم نزعم أن البلاغة عنده: (معان وبيان وبديع)؟!.

يقول الدكتور أحمد مطلوب: "وكانت جهود (السكاكي) في البديع ترتيبًا لمسائله، وفصله عن المعاني والبيان، وتقسيمه إلى ما يتعلق بالمعاني وإلى ما يرجع إلى اللفظ، أو إلى محسنات معنوية ومحسنات لفظية...

إلى أن قال: "ولكن (السكاكي) كان مولعًا بتطبيق مقاييس بعيدة كل البعد عن الفن الأدبي، فجاء بحثه بهذا الشكل يدعو إلى النفور"[1].

وأقول: إن الذي يدعو إلى النفور ما كتبه أستاذنا الدكتور/ مطلوب، وليس هذا بغريب؛ فقد انهال بالنقد من ذي قبل على العلامة (العصام)، صاحب كتاب (الأطول)، واتهمه بكثرة الأخطاء اللغوية، على أن (العصام) نحوي بارع قبل أن يكون بلاغيًّا، وله مؤلفات وشروح على الشافية والكافية. لكنّ العجيب أن (السكاكي) و(القزويني) ألّف فيهما

(١) البلاغة عند السكاكي، د/ أحمد مطلوب، ص٢٩٢، ماجستير.

الدكتور/ مطلوب رسالتي (ماجستير ودكتوراه)، وتتلمذ منذ نعومة أظفاره على ما كتبه (السكاكي)، في كتابه (المفتاح)، ومع ذلك قام بنقده واتهامه بالجهل والنفور من تأليفه (المفتاح).

لكنْ من يجيد القراءة والبحث سيزول عنه تعجبه حين يفسر سبب هجوم الدكتور/ مطلوب على (السكاكي) ومدرسته، مع تتلمذه عليها.

ولعل السبب في ذلك _كما قلت مرارًا_ أن الدكتور/ مطلوب هو امتدادٌ لمدرسة شيخنا، الشيخ/ محمد عبده، والشيخ/ علي عبد الرازق، والشيخ/ المراغي، والدكتور/ شوقي ضيف، والدكتور/ نايل، وغيرهم الذين يميلون إلى مدرسة الشيخ/ عبد القاهر، ويمقتون كل ما هو غير ذلك، مثل الشروح والحواشي وغيرها من الدرر.

ويقول الشيخ المراغي _مصرًّا على تقسيم (السكاكي) البلاغة إلى ثلاثة أقسام (معان وبيان وبديع)، وكونه يجعل البديع عرضيًّا، وكأنه يقرأ مفتاحًا غير مفتاح (السكاكي) الذي بين أيدينا، ثم يشن عليه الحرب بدون وجه حق، يقول سيادته: "ولا وجه لتقسيم علوم البلاغة أقسامًا ثلاثة، ولا لجعله تحسين البديع عرضيًّا، لا ذاتيًّا، فلا نعلم أحدًا سبق (السكاكي) إلى قسمة علوم الفصاحة الأقسام الثلاثة المعروفة"(١).

ثم يقول بعد ذلك بسطور: فلا يمكن فصل بعضها عن بعض، وإن أمكن فعلى نحوٍ آخر، غير ما ذكره (السكاكي) ومن اقتفوا أثره، وساروا على سننه، دون أن يُدلوا بحجة ناصعة....

(١) ينظر: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي، ص١١١، ط: مصطفى البابي الحلبي.

إن التقسيم إلى: معان وبيان وبديع لم يقُل به أحد قبل (السكاكي) ، إذ لم يصرح بعزوه لأحد"[١].

لعل العجيب والغريب في هذا الكلام أن يخرج من شيخنا ، الشيخ المراغي، ولست أجد تفسيرًا لهذا التحامل على (السكاكي) سوى ما قلتُه من ذي قبل، من مؤازرته لكل ما هو مؤيد للشيخ (عبد القاهر)، ومعاداته للسكاكي ومدرسته _كما نص هو على ذلك.

وعد إلى عبارته: "ومن اقتفوا أثره، وساروا على سننه، دون أن يُدلوا بحجة ناصعة"، لتدرك ذلك.

وقد سار على هذا النحو كثير من البلاغيين[٢]، ولولا مخافة الإطالة لذَكرت ذلك بالتفصيل، وقمت بمناقشته والرد عليه.

ويجب التنبيه إلى أن العلامة (السكاكي) حين قسّم البلاغة إلى معان وبيان _كما نص هو على ذلك في أكثر من موضع_ فقد تأثر في هذا التقسيم بصاحب الكشاف، العلامة (الزمخشري)، وعبارته في ذلك هي: "ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب

---

(١) ينظر: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي، ص١١١، ط: مصطفى البابي الحلبي.

(٢) ينظر تفصيل ذلك في بحث لنا، عنوانه: (علم البديع وموقف السكاكي ومدرسته منه، الفصل الثاني، ص٧٦٥، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالاسكندرية، مجلة علمية محكمة، العدد الثامن والعشرون، المجلد الثاني. والصبغ البديعي، د/ أحمد إبراهيم موسى، ص٢٤٧، وما بعدها. والبيان العربي، د/ بدوي طبانة، ص٣٣٥، ط٧، ١٩٨٨م. والبلاغة بين عهدين، د/ محمد نايل، ص٢٥٦، ط: دار الفكر.

القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر (الجاحظ) في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوّة لحييه لا يتصدّى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: (علم المعاني وعلم البيان)، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة اللَّه، وحرص على استيضاح معجزة رسول اللَّه _صلى الله عليه وسلم"[1].

لقد قرأ (السكاكي) كلام (الزمخشري) السابق في (الكشاف)، وتأثر به، ولذلك نجده يفتتح كتابه (المفتاح) بقوله: "القسم الثالث في علمي المعاني والبيان"، وقد كرر هذه العبارة كثيرًا في كتابه، كما قلنا من ذي قبل.

السبب في اتهام بعض البلاغيين للسكاكي

لكن ما الذي جعل بعض البلاغيين يتهمون (السكاكي) بتقسيمه البلاغة إلى (معان وبيان وبديع)، وجعل البديع عرضيًّا؟!.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ): ١/ ن، ط: دار الريان للتراث، رتبه وضبطه: مصطفى حسين، الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ_ ١٩٨٧م.

إذا كان كلام العلامة (السكاكي) واضحًا في (المفتاح) بتقسيمه البلاغة إلى قسمين: (معان وبيان)، فما الذي أوهم بعض البلاغيين بما قالوه، وما اتهموا به (السكاكي)؟

لعل السبب في ذلك هو هذه العبارة، حيث يقول العلامة (السكاكي) في نهاية علم البيان: "وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها، مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة، كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ"(١).

هذه هي العبارة التي جعلت كل من يقرأها يفسرها بالطريقة التي تحلو له، وجعلت بعض البلاغيين _ومنهم بعض شراح المفتاح_ يزعمون أن الوجوه التي ذكرها (السكاكي) هنا إنما هي (علم البديع)، الذي استقر عند (القزويني)في كتابيه.

= بل ولم يقف الأمر بهم عند هذا الحد، إنما قالوا: إن التحسين في قوله: "مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين" =تحسين ذاتي؛ لأنه يختص بـــ(علمي المعاني والبيان)، المستفاد من قول (السكاكي) السابق: "أن البلاغة بمرجعيها".

=وأن التحسين في قوله: " فها هنا وجوه مخصوصة، كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام": تحسين عرضيّ، حيث إنه يختص بعلم البديع، المستفاد من قوله: "فها هنا وجوه مخصوصة".

---

(١) مفتاح العلوم ، ص٢٣١، ط البابي الحلبي.

هكذا يطلقون القول، ويحكمون على عبارة (السكاكي)، ويفسرونها هكذا من غير دليل على كلامهم(١)، ويحملون كلام صاحب (المفتاح) دلالات لا يتحملها.

اتهام السيد الشريف للسكاكي في البديع :

ولعل بعض شراح (المفتاح) كانوا من أوائل من فسر كلام (السكاكي) بغير ما يعنيه صاحب (المفتاح)، حيث يقول العلامة (السيد الشريف) في شرح (المفتاح): "قال: (وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها) أراد بمرجعي البلاغة: علمي المعاني والبيان، وبنوعي الفصاحة: المعنوية واللفظية. وقوله: (لقصد تحسين الكلام)، يريد: أن تلك الوجوه تفيد الكلام حسناً تابعا للبلاغة والفصاحة، خارجًا عما هو حسن ذاتي للكلام البليغ الفصيح، يدل على ذلك قوله: (ويرقِّيه أعلى درجات التحسين). وفي قوله: (فلا علينا)، أي: لا بأس علينا، دلالة صريحة على أن الوجوه المخصوصة لا مدخل لها في الاحتراز عن الخطأ، في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره؛ إذ لو كانت كذلك لوجب عليه أن يفصلها كسائر أجزاء علم البلاغة، فلا يجوز أن يحمل الاستحسان في حد علم المعاني على المحسنات البديعية، فذكره للمطابقة والتجنيس في أثناء نكت الآية من حيث النظر في علم المعاني على سبيل الاستطراد والتبعية"(٢).

(١) يراجع تفصيل ذلك في بحث لنا، عنوانه: علم البديع وموقف السكاكي ومدرسته منه، ص٧٨٨.

(٢) شرح المفتاح للسيد الشريف، تح: أستاذنا، الأستاذ الدكتور/ فريد محمد بدوي النكلاوي، ص٩٣١، دكتوراه.

وقوع الشيرازي فيما وقع فيه السيد الشريف :

ويفسر شارح آخر كلام (السكاكي)، حيث يقول العلامة (الشيرازي) في شرح (المفتاح): "قول (السكاكي): (وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها)، وهما علم المعاني وعلم البيان، (وأن الفصاحة بنوعيها)، وهما المعنوية واللفظية، (مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين)، وإن كان تزيين كل من الأربعة، أي: العلمين والفصاحتين، وتحسينه للكلام غير تزيين الآخر وتحسينه له"(١).

ونلاحظ أن (السيد الشريف) في كلامه السابق حاول أن يُفرق بين التزيين في (المعاني والبيان)، والتزيين في الوجوه المخصوصة (البديع)، بقوله: "يدل على ذلك قوله: (ويرقِّيه أعلى درجات التحسين). وفي قوله: (فلا علينا)، أي: لا بأس علينا، دلالة صريحة على أن الوجوه المخصوصة لا مدخل لها في الاحتراز عن الخطأ، في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره؛ إذ لو كانت كذلك لوجب عليه أن يفصلها كسائر أجزاء علم البلاغة".

=أما الشيرازي فحكم على عرضية التزيين في الوجوه المخصوصة في كلام (السكاكي) دون دليل، واكتفى بقوله: "وإن كان تزيين كل من الأربعة، أي: العلمين والفصاحتين، وتحسينه للكلام غير تزيين الآخر وتحسينه له".

(١) شرح مفتاح العلوم للشيرازي، ص١١٣٦، تح: أ.د/ نزيه فراج.

الوجوه المخصوصة التي ذكرها (السكاكي) في كتابه من توابع البلاغة في (شرح المفتاح للتفتازاني) :

ويقول شارح ثالث، هو العلامة (التفتازاني)، عند شرحه كلام (السكاكي) السابق في مفتاح العلوم: "قول (السكاكي): (فها هنا وجوه مخصوصة): غير جهات الحسن الراجعة إلى نفس البلاغة والفصاحة. (كثيرًا ما يصار إليها)، أي: في كثير من الأحيان يرجع إليها لقصد تحسين الكلام، وهي من توابع البلاغة، ولا تتعلق بما هو الحسن الذاتي للكلام، فلذا أخر عن البيان _أيضًا، مع جعلها مندرجة في تعريف المعاني، بقوله: (وما يتصل بها من الاستحسان وغيره)، على ما مر، ولذا قلّ التفات المصنف إليه، حيث قال: لا علينا، أي: لا بأس علينا أن نشير إلى الأعرف منها، بمعنى عدم التعرض للكثير غير الشائع، وللشائع على سبيل تمام القصد والاستقصاء.

ونحن نقفوا أثره في ذلك، لما عرفت من أن ليس قصدنا في هذا الكتاب إلى التنبيه على دقائق الكتاب، والتوضيح لما قصد في كل باب"[١].

= فقد فسر (التفتازاني) في شرحه (مفتاح العلوم) أن الوجوه المخصوصة التي ذكرها (السكاكي) في كتابه من توابع البلاغة، وعلل لذلك بقوله: "ولذا أخرها، ولذلك فهي لا تتعلق بالحسن الذاتي _كما يدعي التفتازاني– بل هي من توابع البلاغة _على حد قوله.

(١) شرح مفتاح العلوم للتفتازاني، مخطوط، لوحة رقم: ٣٠٨، مخطوط تحت رقم: ٢٣٥٢/ ٥٦٤٩٣ بلاغة.

= ويذكر (التفتازاني) في شرح المفتاح سببًا آخر لكون هذه الوجوه عرضية، لا تتعلق بالحسن الذاتي للكلام، وذلك عند قوله: "ولذا قلّ التفات المصنف إليه، حيث قال: لا علينا، أي: لا بأس علينا أن نشير إلى الأعرف منها، بمعنى عدم التعرض للكثير غير الشائع، وللشائع على سبيل تمام القصد والاستقصاء".

وهو في تعليله هذا قد فهم كلام (السكاكي) خطأ، وحمّله معنى لم يرده (السكاكي) _على ما سيأتي توضيحه.

تأييد (طاش كبرى زاده) لكلام شراح المفتاح :

وقد أكد كلام شراح المفتاح العلامة (طاش كبرى زاده) في شرح الفوائد الغياثية، وعبارته في ذلك، هي: "يقول الإيجي في (الفوائد الغياثية): (وبالحري أن نذيلهما)، يقول: طاشكبرى زاده : (أي: العلمين بعد ما عرفت أن البلاغة بمرجعيها والفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، بشيء مشهور من (علم البديع)، وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة.

ثم يقول: وهذا العلم يفيد الكلام حسناً تابعًا للبلاغة والفصاحة، خارجًا عما هو حسن ذاتي للكلام البليغ الفصيح، فلا مدخل لها في الاحتراز عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره، فلا يجوز حمل الاستحسان الذي ذكره (السكاكي) في حد (علم المعاني) على هذا العلم _كما حققناه، وأما ذكر المطابقة والتجنيس في أثناء نكت علم

المعاني في الآية التي ذكرها (السكاكي)، فعلى سبيل الاستطراد والتبعية"(١).

هذا ما قاله طاش كبرى زاده في شرح الفوائد الغياثية، متابعة لشراح المفتاح في رأيهم.

كلام (السكاكي) والنظر فيه:

ونعود إلى عبارة العلامة (السكاكي) التي حاول كل من أتى بعده قراءتها بالطريقة التي يرتضيها هو، وليست الطريقة التي أرادها صاحب المفتاح .

علينا قراءة العبارة جيّدًا، ومحاولة تفسير كلام (السكاكي) _وإن كان كلامه واضحًا لا يحتاج إلى تفسير.

يقول السكاكي _بعد كلامه عن علم المعاني ثم علم البيان:

"وإذ قد عرفنا الحقيقة في المفرد وفي الجملة، وعرفنا فيهما التصريح والكناية، وعرفنا المجاز في المفرد وفي الجملة، وعرفنا تنوع الكناية...، وعرفنا تنوع المجاز،... وقضينا الوطر عن كمال الاطلاع على هذه المقاصد، فنقول: البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها.

ثم فرّق بين الفصاحة والبلاغة، وذكر أنموذجًا قرآنيًّا طبق عليه ما قاله عليه، وعبارته في ذلك هي: "وإذ قد وقفت على البلاغة وعثرت على

(١) شرح الفوائد الغياثية، طاش كبرى زاده، ص٢٧٠، تحت رقم: ٣٨٨٠/ ١٩٢١.

الفصاحة المعنوية واللفظية فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آية أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين ما عسى يسترها عنك، ثم إن ساعدك الذوق أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها وهي قوله علت كلمته: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين).

ثم قال: "والنظر في هذه الآية من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني _ وهما مرجعا البلاغة _ ومن جهة الفصاحة المعنوية ،ومن جهة الفصاحة اللفظية".

وقد أبدع في تحليله للآية الكريمة من الجهات الأربع، ولاحِظ حصره هنا البلاغة في علمي: (المعاني والبيان).

ثم خم كلامه، بقوله: "ولله در شأن التنزيل، لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر، ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت، ...؛ لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي (المعاني والبيان).

ثم يتضح تأثره بالعلامة (الزمخشري) حين يقول: "لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي (المعاني والبيان)، وأن لا علم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، هو الذي

يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه، ويصون له في مظان التأويل ماءه ورونقه"(١).

ثم يختم كلامه عن الآية بقوله: "ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر والفضل الباهر لا ترى علما لقي من الضيم ما لقي ولا مني من سوم الخسف بما مني، أين الذي مهد له قواعد ورتب له شواهد وبين له حدودًا يرجع إليها وعين له رسوما يعرج عليها، ووضع له أصولا وقوانين، وجمع له حججا وبراهين، وشمر لضبط متفرقاته ذيله، واستنهض في استخلاصها من الأيدي رجله وخيله، علم تراه أيادي سبا، فجزء حوته الدبور، وجزء حوته الصبا"(٢).

ولعل هذا هو السبب الرئيس في تأليف (السكاكي) كتابه (مفتاح العلوم)، بالإضافة إلى الكشف عن السر في لإعجاز القرآن، على ما سيأتي في فصل مستقل بعد قليل.

إن نصّ كلام (السكاكي) هو سبب اتهامه بعرضية البديع، وبعد أن عرض (السكاكي) لقسميه، التي نص عليها كثيرًا بتنوع كتابه إلى بابين في البلاغة، (علم المعاني وعلم البيان)، وختمه بالتفرقة بين الفصاحة والبلاغة، وبذكره أنموذجًا ليطبق عليه ما أراد = نجده يقول: "وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين،

(١) مفتاح العلوم ، ص٤٢٠ وما بعدها.

(٢) مفتاح العلوم ، ص٤٢٢.

ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة، كثيرًا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها"[1].

هذا هو نص كلام (السكاكي) الذي أوهم محققي كتابه أنه يتحدث عن (علم البديع)، فجعل محقق الكتاب يعنون لهذه العبارة، بـــ(علم البديع)، بل ويعرفه بتعريف التلخيص للقزويني، وهذا من العجب.

وإذا كان هذا (علم البديع، كما يزعم محقق الكتاب، وكما يتوهم بعض شراح المفتاح والتلخيص، فلِم لم ينص (السكاكي) على ذلك، ولِم حصر البلاغة في (المعاني والبيان)، كما نص على ذلك في أكثر من موضع _كما ذكرت.

لم ترد كلمة (بديع) في كتاب (السكاكي) إلا مرتين، وليس المراد بها (علم البديع)، وإنما بمعنى العجيب والغريب، وهو معنى (لغوي) مذكور في كل الكتب البلاغية وغير البلاغية.

لست أدري سببًا واحدًا يجعلنا ندّعي على (السكاكي) كذبًا وافتراءً أنه قسّم كتابه إلى ثلاثة أقسام: (علم المعاني ،وعلم البيان ،وعلم البديع).

= بل ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل زعم من زعم تقصير (السكاكي) في تناوله لعلم البديع بتذيله في آخر البلاغة.

= وذهبوا إلى أكثر من ذلك، فقالوا: إن التحسين في قول (السكاكي) السابق: "مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين" تحسينٌ ذاتي؛ لأنه يختص بعلمي (المعاني والبيان)، المستفاد من قوله: "أن البلاغة بمرجعيها".

---

(١) مفتاح العلوم ، ص٤٢٣.

=وأن التحسين في قوله: "فها هنا وجوه مخصوصة، كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام" تحسين عرضي؛ حيث إنه يختص (بعلم البديع)المستفاد من قوله: "فها هنا وجوه مخصوصة".

هكذا يطلقون القول ويحكمون على عبارة (السكاكي)، ويفسرونها هكذا، من غير دليل على كلامهم.

بل ويأولون الظاهر الذي لا يحتاج إلى تأويل، ويفسرون الواضح الذي ظهر معه دليل.

لقد ذكر (السكاكي) في أكثر من سبعة مواضع أن البلاغة عنده: (معان وبيان)، متأثرًا في ذلك بـــ(الزمخشري) في الكشاف.

لكن من يتهمونه يتغافلون عن كلامه الظاهر ونصوصه المتناثرة في كتابه، ويحاولون ابتداع أي نقد للسكاكي، واتهامه أنه جنى على علم البديع، وجعله عرضيًّا.

ولست أدري أين (علم البديع) الذي ذكره (السكاكي) وجنى عليه؟!.

رحم الله العلامة (السكاكي)، لو عاش إلى وقتنا هذا لتعجب من زعم هذا، ومن فهم عبارته هكذا، وتحميلها دلالات لا تتحملها.

والحق الذي لا مراء فيه، أن عبارة (السكاكي) السابقة واضحة لا تحتاج إلى تفسير وتأويل.

ولتوضيح ما التبس على بعض البلاغيين نقول: لقد عنون العلامة (السكاكي) القسم الثالث من كتابه، بقوله: "القسم الثالث من الكتاب في علمي المعاني والبيان، وفيه مقدمة لبيان حدي العلمين، والغرض فيهما"(١).

وبعد أن فصّل القول في العِلمين أدرك أن الغاية من البلاغة _ بالإضافة إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال – هي: (التزيين والتحسين)، بدليل قوله: "وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها، مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين".

ولعل مما يقوي هذا ويؤكده قوله عند تعريف علم المعاني: "اعلم أن المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره".

فالتحسين والتزيين غرض رئيس من أغراض دراسة المسائل البلاغية، ولا يجب أن نلتفت إلى ما قيل حول تفسير هذه العبارة من بعض الشراح؛ لأنه تفسير في غير موضعه، وتكلّف لفهم العبارة.

وقد أدرك (السكاكي) بذوقه العالي وحسه المرهف، وبمراجعة كتب من تقدموه أن هناك وجوهًا ومسائل تحقق هذا التحسين والتزيين _أيضًا، وأنها كثيرة، لكنها لا تندرج تحت أي من العلمين؛ فأفرد الحديث عنها، واستشهد لها بشواهد من القرآن والشعر.

ولو صحّ ما قالوه أن تزيين هذه المسائل عرضيّ لَمَا استشهد لها (السكاكي) من القرآن.

---

(١) مفتاح العلوم ، ص٩١.

اعلم أن (السكاكي) لم يقسم التزيين إلى: (ذاتي وعرضي) كما زعموا،

لكنه أدرك أن الغاية من البلاغة والفصاحة هي (التزيين) قد تحققت في العلمين، وأنها متحققة _أيضًا_ في مسائل بلاغية منفردة، لا يمكن إدراجها تحت أي من العلمين، ولم يسمها (بديعًا)، بل إنه أدرج فيها مسائل من علم المعاني، وذلك عند قوله: "ومنه تقليل اللفظ ولا تقليله، ومنه الاعتراض: ويسمى الحشو، وهو أن تدرج في الكلام ما يتم المعنى بدونه...، ومنه الالتفات"(١).

ولسنا هنا بصدد مناقشته في إقحام مسائل من المعاني في البديع؛ لأنه لم يعنون لهذه المسائل بـــ(علم البديع) حتى ننقده أو نناقشه فيما ذهب إليه، لكنه سار على درب من سبقه في عدم الفصل بين هذه المسائل.

والعلامة (السكاكي) بعد سرده لهذه الوجوه المخصوصة، ختم كلامه بقوله: "وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني، لا أن تكون المعاني لها توابع، أعني: أن لا تكون متكلفة.

ثم يقول: ويورد الأصحاب ها هنا أنواعا، مثل كون الحروف منقوطة، أو غير منقوطة، أو البعض منقوطًا، والبعض غير منقوط بالسوية، فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت، وتلقب كلا من ذلك بما أحببت.

ولاحِظ العبارة الأخيرة، وهي قوله: فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت، وتلقب كلا من ذلك بما أحببت.

---

(١) مفتاح العلوم ، ص٢٣٤.

فلعل هذا دليل واضح على كثرة هذه الوجوه وعدم انحصارها _على طريقة القدماء، ودليل ثان على أنها ليست بعلم، فلم يحصر القدماء هذه الوجوه تحت علم، بل إنهم كانوا يخلطون بينها وبين مسائل علمي المعاني والبيان، كما في كتاب (البديع) لابن المعتز، و(الصناعتين) لأبي هلال العسكري، وغيرها من الكتب.

وحاصل القول:

أن العلامة (السكاكي) حصر البلاغة عنده في (المعاني والبيان)، وهو يختم كلامه بذلك، ويمهد للكلام عن علم الاستدلال، وعبارته الذي يختم بها هذا الباب قوله: "وإذ قد تحققت أن علم المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني؛ ليتوصل بها على توفية مقامات الكلام حقها، بحسب ما يفي به قوة ذكائك.

وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فردة من دوحتها = علمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان، وحين انتصبنا لإفادته لزمنا أن لا نضنّ بشيء هو من جملته، وأن نستمد من الله التوفيق في تكملته"(١).

هذ هو كلام (السكاكي) في كتابه، دون أن نحمل نصوصه دلالات لا تتحملها، ونؤول ما هو ظاهر، ونفسر ما هو واضح.

(١) مفتاح العلوم ، ص٢٣٦. ط البابي الحلبي.

الفصل الثامن

السكاكي والإعجاز القرآني

لقد ألّف (السكاكي) كتابه بعد أن عكف على كل ما كُتب قبله، وقد ظل يقرأ هنا وهناك، ويضع السطور بجوار السطور، بعد أن يُضفي عليها ما توصل إليه بعد بحثه الدؤوب، وما ارتضاه من آراء، أو مناقشة ما خالف وجهة نظره.

استطاع (السكاكي) الموسوعي أن يلم شتات العلوم في كتاب واحد، وسمه بـــ(مفتاح العلوم).

وقد كان الغرض الرئيس من تأليف (المفتاح) وموضوعه الذي من أجله سطّر كتابه، هو: (الإعجاز القرآني).

فعلى عكس ما يعتقد بعض اللغويين، نجد (السكاكي) يؤلف كتابه على طريقة (ابن سنان الخفاجي) في (سر الفصاحة)، بادئًا بالصوت ثم الحرف ثم الكلمة، حتى يصل إلى الجملة والتركيب، ومنها إلى السر في إعجاز القرآن.

ومع أن (الخفاجي) قد اختلف قليلاً في رأيه، لكن (الخفاجي) و(السكاكي) _وكما قلت سابقًا_ قد ألّفا كتابيهما بطريقة تكاد تكون واحدة.

ولم يجعلنا العلامة (السكاكي) ننتظر كثيرًا ونبحث عن سبب تأليفه كتابه؛ فنراه يفتتح كتابه بقوله: "أحق كلام أن تلهج به الألسنة، وأن لا يطوى منشوره على توالي الأزمنة، كلام لا يفرغ إلا في قالب الصدق، ولا ينسج خبره إلا على منوال الحق،... وهو مدح الله تعالى وحمده... ثم الصلاة والسلام على حبيبه محمد البشير النذير، بالكتاب العربي المنير،

الشاهد لصدق دعواه بكمال بلاغته، المعجز لدهماء المصاقع عن إيراد معارضته، إعجازاً أخرس شقشقة كل منطيق. وأظلم طرق المعارضة، فما وضح إليها وجه طريق، حتى أعرضوا عن المعارضة بالحروف، إلى المقارعة بالسيوف، وعن المقاولة باللسان، إلى المقاتلة بالسنان؛ بغيًا منهم وحسدًا، وعنادًا ولددًا"(١).

وليس هذا بخاف ولا مستتر في كتاب (المفتاح)، بل تجده ظاهرًا في كل سطر من سطور الكتاب، حتى جعل أستاذنا العلامة، الأستاذ الدكتور/ فوزي السيد عبد ربه يؤلف بحثًا عنوانه: (إعجاز القرآن ونظمه عند (السكاكي)، ولقد حاول أن يثبت أن (السكاكي) قد ألّف كتابه ليعالج قضية الإعجاز؛ حيث يقول سيادته :

"لم يكن غرض (السكاكي) أن يضع قواعد العلوم التي ضمنها كتابه، ... إلى أن قال: إذن القضية النى نصبها (السكاكي) ليقدمها في مفتاح، هي: (إعجاز القرآن، من جهة نظمه وبلاغته)، وأصبحت هذه القضية هي موضوع كتابه، وشغله الشاغل من أول كلمة في الكتاب إلى آخر كلمة فيه"(٢).

وقد حاول أستاذنا العلامة أن يثبت بشتى الطرق أن الغرض الرئيس من تأليف (السكاكي) كتابه هو: (الإعجاز القرآني)، مستعينًا في ذلك بنصوص من كتاب (المفتاح).

---

(١) مفتاح العلوم ، ص٥. ط دار الكتب العلمية.

(٢) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، أ.د/ فوزي السيد عبد ربه، ص٧٤، ط١، ١٤٠٩هـ_ ١٩٨٩م.

يقول أستاذنا: "وفرق كبير بين أن يكون القصد إلى الإعجاز القرآني، فيُستعان على تحقيق هذا القصد بشتى الوسائل، ومنها علم البلاغة، على أهميته وخطره، وبين أن يكون القصد إلى علم البلاغة، للحاجة إليه في معرفة الإعجاز القرآني وتفسير كلام الله.

وهذا القصد الأخير نجده عند ممن كتبوا في البلاغة العربية، قبل أبي يعقوب، – ومنهم أبو هلال العسكري – فقد صنف كتابه (الصناعتين)، وجعل موضوعه البلاغة، مبيناً أهميته وخطره، والحاجة إليه في التوصل إلى معرفة كتاب الله وبيان إعجازه...

أما أبو يعقوب السكاكي، فلم يكن همه البلاغة، أو ضبط مسائل علمي المعاني والبيان، وإنما كان همه وموضوعه الإعجاز القرآني، إلا أنه عندما وصل إلى أهم وسائله، وهما المعاني والبيان، بيّن خطرهما في التعرف على تمام مراد الحكيم _تعالى وتقدس.

وقد كان (السكاكي) حريصًا على أن يذكر قارئه بين الحين والآخر بموضوع كتابه وغايته، وأن يطمئن إلى أن قارئ الكتاب يدرك هذه الغاية، فنراه يصدر كثيرًا من أبواب الكتاب ومسائله، أو يختمه بحديث عن الإعجاز القرآني، كاشفًا أن هذا هو الموضوع الذي عرض من أجله هذه الأبواب أو تلك المسائل"(١).

وأيًّا ما كان الأمر، فإن اهتمام (السكاكي) بقضية (الإعجاز القرآني) في كتابه واضحة، وإنه كان الغرض من تأليف الكتب التي سبقت

(١) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، ص٧٦.

(السكاكي)، (كالصناعتين، وسر الفصاحة، والدلائل والأسرار)، غير الغرض من تأليف (السكاكي) كتابه، وإلا لما سمى كتابه (مفتاح العلوم).

لكنّ هذا لا يعني اهتمام (السكاكي) الواضح بقضية الإعجاز القرآني والدفاع عنها _كما ذكر أستاذنا .

يقول طاش كبرى زادة في كتابه: (شرح الفوائد الغياثية): " قال (السكاكي) في تكملة المفتاح: اختُلف في وجه الإعجاز: فمنهم من يقول: صرف المتحدين عن المعارضة، وإن كانت ممكنة، ويلزمه تعجب العاجزين عن العجز لا عن النظم.

ومنهم من يقول: وروده على أسلوب مبتدأ مباين لأسلوب غيره، ويلزمه كون أسلوب لم يعهد في الخطبة معجزًا، ومنهم من يقول: سلامته عن التناقض، ويلزمه إعجاز كل من سلم عنه، ومنهم من يقول: الاشتمال على الغيوب، ويلزمه حصر الإعجاز في السور المشتملة عليها، واللوازم كأنها منتفية بالإجماع.

فالصواب: ما ذهب إليه (السكاكي) من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس الفصاحة والبلاغة، كما يجده أرباب الذوق لا غيره"(١).

فالعلامة (السكاكي) في كتابه يهتم كثيرًا بالحديث عن قضية الإعجاز القرآني، اسمع إليه يقول بعد أن عرّف علمي المعاني والبيان: "فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل"(٢).

---

(١) شرح الفوائد الغياثية، طاش كبرى زادة، لوحة رقم: ٢٦٧، مخطوط، تحت رقم: ٣٨٨٠/ ١٩٢١. ٤٩٦ بلاغة.

(٢) مفتاح العلوم، ص١٦٢.

ويستهل الفن الثالث الذي خصصه لأحوال المسند ببيان أن الغرض هو الإعجاز القرآني، وأن الإعجاز إنما كان من هذا الوجه الذي ذكره، والذي يدور حول سحر بيانه وأسرار بلاغته، فهو الوجه " الذي يتلاطم دون أبناء جنسه المستودع في استكشافه عن أسرار البلاغة كمال أنسه النقاب المحدث، فلا يحتجب عنه شيء من بدائع النكت في مكامنها، المستخرج للطائف السحر البياني عن معادنها، المستطلع طلع الإعجاز التنزيلي باستغراق طوقه، المالك لزمام الحكم كفاء المتحدين بعجيب فهمه وغريب ذوقه، فهو الطلبة وما عداه ذرائع إليه، وهو المرام وما سواه أسباب للتسلق عليه"(١).

ومن أفضل ما كتب عن الإعجاز القرآني، قوله عند تعريف البلاغة: "بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها، أعني: البلاغة، طرفان: أعلى وأسفل متباينان تباينًا لا يتراءى له ناراهما، وبينهما مراتب تكاد تفوق الحصر متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة، وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه به في صدر الكتاب، من أصوات الحيوانات، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حد الإعجاز، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه.

واعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يُدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن، يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين، نعم

(١) مفتاح العلوم، ص٧٨.

للبلاغة وجوه ملتئمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلي عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا"[1].

وكلام (السكاكي)السابق حري به أن يُكتب بماء الذهب.

ويعلق السيد الشريف في شرح المفتاح على قول (السكاكي) السابق، حيث يقول: "قوله: (يدرك ولا يمكن وصفه)، يريد به أن الإعجاز _مع كونه مدرَكا لنا_ لا يمكننا أن نصفه ونعبر عنه بما يدركه به غيرنا، سواء كان تعبيرًا تحديديا أو تنبيهيا، وذلك لغاية لطفه ودقته، وشبهه في قصور الوصف عنه بأمرين: أحدهما وجداني، أعني: استقامة الوزن في الشعر، فإنا ندركها وجدانا بلا شبهة، وتقصر عبارتنا عن كشف حقيقتها. والثاني: حسي، أعني: (الملاحة) فإنا نحس بها ونعجز عن وصفها لغيرنا.

قوله: (ومدرك الإعجاز عندي هو: الذوق ليس إلا)، أي: ما يدرك به الإعجاز هو القوة الذوقية التي يدرك بها دقائق الكلام، ووجوه محاسنه اللطيفة لا التحديد، ولا التعبير على وجه التنبيه، ولا أمر آخر يتوصل به إلى إدراك الأشياء. ثم الذوق إن كان فطريا سليقيا فذاك وإلا احتيج في اكتسابه إلى (طول خدمة هذين العلمين)، وإذا تأيد الفطري بقواعد الاكتساب فهو الغاية في إدراك الإعجاز"[2].

---

(١) مفتاح العلوم، ص٤١٥، ٤١٦، دار الكتب العلمية.

(٢) شرح مفتاح العلوم، للسيد الشريف، تح: أ.د/ فريد النكلاوي، ص٩٠٩، ٩١٠. ويراجع كلام الشيرازي في شرح المفتاح، تح: أ.د/ نزيه فراج، ص١١٠٧. وشرح المفتاح للتفتازاني، لوحة رقم: ٣٠٧.

وقد اهتم العلامة (السكاكي) في كتابه بالحديث عن قضية الإعجاز القرآني اهتمامًا واضحًا، نجده في تناوله لكل مسألة بلاغية يعرضها[1].

(١) يراجع مفتاح العلوم، ص ٢٠٥، ٢٤٨، ٤١٢، ٥١١، ٥١٢، ٥٨٦، ٥٨٨.

الفصل التاسع

النظم القرآني في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي

ظهرت قضية النظم واضحة جلية عند الإمام (السكاكي) في كتابه (مفتاح العلوم)، أثناء تناوله لقضايا علم المعاني.

يقول أستاذنا الدكتور/ فوزي السيد عبد ربه: "وقد أخذ (السكاكي) أصول هذه النظرية، والأسس التي قامت عليها، وأقام منها بناءً كاملاً لعلم من علوم البلاغة، هو (علم المعاني)، إلى جانب ما أفاده من المتكلمين والأصوليين واللغويين، وجهودهم حول هذه النظرية.

وعلم المعاني الذي أقامه (السكاكي) لدراسة الأحوال والهيئات التي تعرض للكلام تحقيقًا لتطبيقه على مقتضيات الأحوال والمقامات جعله يضع هذه النظرية في قالب قاعدي، واضح المعالم، محدد الأركان.

وليست المعاني عنده، والتي خصص لها علمًا مستقلاً إلى معاني النحو وأحكامه، أو النظم الذي شرحه (عبد القاهر) وأبان سبُله"[1].

فقد جمع العلامة (السكاكي) ما كتب قبله حول قضية النظم عند (الجاحظ) إلى (عبد القاهر) و(القاضي عبد الجبار)، والعلامة (الخطابي)، وغيرهم، وحاول معالجة هذه القضية التي ظهرت واضحة عند الإمام (عبد القاهر).

فنظْم الشيخ (عبد القاهر) في كتابيه، قد تناوله الإمام (السكاكي) في قضايا (علم المعاني).

---

(١) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، ص٥٧

يقول (السكاكي) في تعريفه (علم المعاني): "هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليُحتَرز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام، على ما يقتضي الحال ذكره"(١).

وقد بيّن (السكاكي) ذلك وشرَحه، حين قال: "وأعني بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة وهي تراكيب البلغاء لا الصادرة عمن سواهم لنزولها في صناعة منزلة أصوات حيوانات تصدر عن محالها بحسب ما يتفق، وأعني بخاصية التركيب: ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب، جاريًا مجرى اللازم له؛ لكونه صادرا عن البليغ، لا لنفس ذلك التركيب، من حيث هو هو، أو لازمًا له هو هو حينا، وأعني بالفهم: فهم ذي الفطرة السليمة، مثل ما يسبق إلى فهمك من تركيب: (إن زيدًا منطلق) إذا سمعته عن العارف بصياغة الكلام من أن يكون مقصودا به نفي الشك أو رد الإنكار.

أو من تركيب: (زيد منطلق)، من أنه يلزم مجرد القصد على الإخبار، أو من نحو: منطلق بترك المسند إليه، من أنه يلزم أن يكون المطلوب به وجه الاختصار، مع إفادة لطيفة مما يلوح بها مقامها، وكذا إذا لفظ بالمسند إليه، وهكذا إذا عُرِّف أو نكر أو قيد أو أطلق أو قدم أو أخر، على ما يطلعك جميع ذلك شيئاً فشيئاً مساق الكلام في العلمين"(٢).

يقول أستاذنا الدكتور/ فوزي: "فهذا العلم _يعني علم المعاني_ موضوعه: خواص التراكيب، والفروق الدقيقة التي تُراعى عند تأليف

(١) مفتاح العلوم: ١٦١.

(٢) مفتاح العلوم: ١٦١، ١٦٢.

الكلام، من ذِكر وحذف وتقديم وتأخير وتعريف وتنكير، وفصل ووصل، إلى غير ذلك من الهيئات التي تعرض للكلام تأديةً للأغراض المختلفة، ووصولاً إلى الاحتراز عن الخطأ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال"(١).

يقول السيد الشريف في شرح المفتاح، عند تعليقه على تعريف علم المعاني السابق: "فظهر أنه لا بد لصاحب المعاني _مع معرفة الخواص_ من معرفة كون التراكيب مستحسنة، وغير مستحسنة، ليتمكن من إيراد تراكيبه منطبقة على ما ساقها لأجله، ومستحسنة في مواقعها، ومن حمل كل تركيب يرد عليه على ما يليق بحال المتكّلم. فإن البلغاء _أيضًا_ على درجات متفاوتة، وربما يستحسن كلام في مقام من بليغ فيحمل على دقائق جمة، ولا يستحسن مثله في ذلك المقام من آخر دونه في البلاغة، فلا يحمل عليها، بل على ما يناسب منها مرتبته.

إلى أن يقول: إذ البليغ يلزمه عرفًا أن يقصد بتراكيبه ما يناسبها، أو المعنى الذي يسبق إلى الفهم من تركيب البليغ، حال كون ذلك المعنى لازما له لما هو هو، أي لذاته"(٢).

وإذا كان النظم هو تتبع معاني النحو وأحكامه عند الشيخ (عبد القاهر) _كما هو معلوم، فإن هذا المعنى لا يبعد عنه كثيرًا ما أراده (السكاكي) من علم المعاني، كما أشار إلى ذلك أستاذنا الدكتور/ فوزي، في كتابه، حيث يقول عند توضيح ذلك: "وإذا كان (عبد القاهر) لا يقصد

(١) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، ص١١٧، ١١٨.

(٢) شرح مفتاح العلوم للسيد الشريف، ص٩، وما بعدها.

بالنحو معناه الضيق، بحيث يجعل لصحة التي تنشأ عن قواعد النحو والإعراب هي كل شيء في النظم الأدبي.

=فإن أبا يعقوب السكاكي يرى الصلة الوثيقة بين النحو وأحكامه، وما ينتج عن هذه الأحكام من معانٍ ووشائج وصلات، فلم يقف فهمه للنحو عند حدّ الصحة والتركيب والصحة الإعرابية.

فقد كان تعريف (السكاكي) للنحو كاشفاً عن هذه الصلة القوية التي يراها بين قواعد النحو ومعانيه، فيقول في تعريفه: (اعلم أن علم النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم؛ لتأدية أصل المعنى مطلقاً، بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها؛ ليحترز بها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية.

وأعني بكيفية التركيب: تقديم بعض الكلم على بعض، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك، وبالكلم: نوعيها المفردة، وما هي في حكمها)[١].

فمهمة النحو عنده تكمن في الاحتراز عن الخطأ في التركيب، من حيث التقديم والتأخير، ورعاية الهيئات التي يكون عليها الكلام.

فالسكاكي تجاوز بالنحو هذه المهمة الضيّقة في حدود الإعراب، وضبْط أواخر الكلمات إلى المعاني النحوية، وعناصر الحسن والجمال التي يحويها الأدب، ويحرص عليها صناع الكلام، كالتقديم والتأخير وغيرهما من الهيئات المخصوصة"[٢].

---

(١) مفتاح العلوم: ٣٣.

(٢) إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، ص١٢٠. ومفتاح العلوم: ٧٥.

والسكاكي حين فصل في كتابه بين النحو والبلاغة، لم ينس أنهما يشتركان ويتعانقان في تأدية المعاني والأغراض، وفي الاحتراز عن الخطأ في التركيب، وفي تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره، وإن كان أحدهما ينظر إلى جهة الإعراب، والثاني ينظر من جهة البلاغة والمطابقة لمقتضى الحال والمقام.

وعلم النظم أو علم المعاني عند (السكاكي) يعني البحث عن فائدة كل كلمة في التركيب، وجهة موقعها من البناء الأدبي، وربط ذلك كله بالأحوال والمقامات[١].

وقد طبق (السكاكي) في كتابه نظرية النظم[٢] على مسائل علم المعاني، متأثرًا في ذلك بالعلامة (عبد القاهر الجرجاني)، وإن كان تبويبه لمسائل علم المعاني قد نظم هذه القضية، وجعل الاستفادة منها أكبر.

فإن الشيخ (عبد القاهر) ومن قبله قد عرضوا لقضية النظم في كتبهم، على اختلاف عرضهم وتطبيقهم لها، فإن (السكاكي) قد عرض قضية النظم تحت مسائل علم المعاني، وبيّن الفروق اللغوية والأدبية لتراكيب هذه المسائل.

---

(١) راجع تفصيل ذلك في بحث قيم نشره أستاذنا الدكتور/ فوزي السيد عبد ربه، ص١٠٩، وما بعدها، ١٤٠٩هـ_١٩٨٩م.

(٢) يراجع حديث السكاكي عن النظم في كتابه (مفتاح العلوم): ص١٥، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٦٨، ٣٢٣، ٣٤٧، ٥٠١، ٥٧٧، ٥٨٥، ٥٨٧.

الفصل العاشر

إنكار السكاكي للمجاز العقلي

عنون العلامة (السكاكي) في كتابه _بعد أن ذكر أنواع الاستعارة_ للفصل الخامس في المجاز العقلي، بادئًا بالتعريف به، حيث قال: "المجاز العقلي هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه، لضرب من التأويل، إفادة للخلاف لا بوساطة وضع، كقولك: أنبت الربيعُ البقل، وشفى الطبيبُ المريض، وكسا الخليفةُ الكعبة، وهزم الأميرُ الجند، وبنى الوزير القصر"(١).

وظل (السكاكي) هكذا يشرح التعريف، وبيّن وجوه استعمال المجاز العقلي، وسبب تسميته مجازًا عقليًّا لا لغويًّا، حيث قال: "ويسمى هذا النوع مجازا لتعدي الحكم فيه عن مكانه الأصلي فالحكم في أنبت الربيع البقل بكون الإنبات فعلا للربيع مكانه الأصلي عند العقل كونه فعلا لله عز وجل وفي هزم الأمير الجند بكون هزم الجند فعلا للأمير مكانه الأصلي عند العقلاء كونه فعلا لعسكر الأمير.

=ويسمى عقليا لا لغويا لعدم رجوعه على الوضع، وكثيراً ما يسمى حكميًّا؛ لتعلقه بالحكم كما ترى. ومجازًا في الإثبات _أيضًا؛ لتعلقه بالإثبات، وليس من واجبات هذا المجاز أن يكون مكان الحكم الأصلي فيه معلوما بنفس العقل كما في أنبت الربيع البقل، بل إن استعان في علمه بذلك بأمر غير الوضع كما في هزم الأمير الجند وكسا الخليفة الكعبة جاز

(١) مفتاح العلوم: ٣٩٣.

ولم يخرجه عن كونه عقليا لكن الأليق إطلاق اسم العقلي على الأول واسم الحكمي والإثباتي على الثاني"[١].

وظل (السكاكي) في كتابه هكذا يشرح ويفصل القول في صور المجاز العقلي، ويفرق بينه وبين الحقيقة العقلية، ثم يختم كلامه فيه بقوله: "وإذا تأملت المجاز العقلي وجدت الحاصل منه يرجع إلى إيقاع نسبة في غير موضعها عند المُوقع، لا بد من حيث اللغة لضرب من التأويل، مثل النسبة بين إنبات البقل والربيع، في الخبر والأمر والنهي والاستفهام، وبين الوزير وبناء القصر في ذلك"[٢].

وبعد أن عرض (السكاكي) في كتابه لتعريف المجاز العقلي، والفرق بينه وبين الحقيقة العقلية، ووجوه استعمال المجاز العقلي وصوره، وسبب تسميته، كل ذلك التفصيل والاستشهاد بالشواهد القرآنية والأبيات الشعرية والأمثلة المصنوعة، التي توضح ما غمض.

أقول: بعد هذا التفصيل نجده يُدلي برأي جديد ينسب له، حيث يقول: "هذا كله تقرير للكلام في هذا الفصل بحسب رأي الأصحاب، من تقسيمِ المجاز إلى: لغوي وعقلي، وإلا فالذي عندي هو نظم هذا النوع في سلك الاستعارة بالكناية، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي، بوساطة المبالغة في التشبيه على ما عليه مبني الاستعارة _كما عرفت، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الاستعارة، وبجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم، وجعل نسبة الهزم إليه قرينة الاستعارة.

---

(١) مفتاح العلوم: ٣٩٣.

(٢) مفتاح العلوم: ٤٠٠.

وإنني بناء على قولي هذا هاهنا، وقولي ذلك في فصل الاستعارة التبعية، وقولي في المجاز الراجع عند الأصحاب على حكم للكلمة على ما سبق أجعل المجاز كله لغويًّا، وينقسم عندي هكذا إلى: مفيد وغير مفيد، والمفيد إلى: استعارة وغير استعارة، والاستعارة: إلى مصرح بها ومكني عنها، والمصرح بها إلى: تحقيقية وتخييلية، والمكنى عنها إلى: ما قرينتها أمر مقدر وهمي، كالأنياب في قولك: أنياب المنية، وكنطقت، في قولك: نطقت الحال بكذا، أو أمر محقق، كالإنبات في قولك: أنبت الربيع البقل، وكالهزم في قولك: هزم الأمير الجند، والتحقيقية والتخييلية كلتاهما إلى: قطعية واحتمالية للتحقيق والتخييل، بتحصيل أقسام ثلاثة من ذلك: تحقيقية بالقطع، وتخييلية بالقطع، تحقيقية أو تخييلية بالاحتمال.

واعلم أن حد الحقيقة الحكمية والمجاز الحكمي عند أصحابنا _رحمهم الله_ غير ما ذكرت.

حد الحقيقة الحكمية عندهم: كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع موقعه، وحد المجاز الحكمي: كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل، لضرب من التأول. وإذ قد عرفت ما ذكرت وما ذكروا فاختر أيهما شئت"(١).

هذا ما قاله (السكاكي) في كتابه، فبعد أن شرح الحقيقة العقلية والمجاز العقلي _على طريقة الأصحاب بالتفصيل_ اختار نظم هذا النوع، وتلك الشواهد في سلك الاستعارة بالكناية.

(١) مفتاح العلوم: ٤٠٠، ٤٠١.

فلم ينكر العلامة (السكاكي) المجاز العقلي، ولم ينكر شواهده _وهي كثيرة، وكيف وقد استشهد بشواهد قرآنية متعددة، تؤكد وجود هذا النوع في البلاغة.

ولاحظ قول (السكاكي) السابق: "وإلا فالذي عندي هو نظم هذا النوع..."، لم يقل: نظم المجاز العقلي؛ لأنه يعترف بوجود هذه الشواهد والصور لهذا النوع من البلاغة، لكنه يدرك جيّدًا أنها يجب إدراجها في سلك الاستعارة بالكناية.

رأينا في المجاز العقلي

والحقيقة التي لا مفر منها: أني منذ نعومة أظافري، وحين كنت في مرحلة التعليم الجامعي كان في نفسي شيء من إفراد هذه الشواهد بالذكر، وتسميتها بـــ(المجاز العقلي)، وفصلها عن علم البيان. ولم يكن وقتها قد اطلعت على رأي (السكاكي) في كتابه.

ومع ذلك وقبل كل شيء يجب التأكيد على أن العلامة (السكاكي) لم ينكر المجاز العقلي _كما زعم بعض البلاغيين، قديمًا وحديثًا – وهم كثر –لكنه فقط أدرج شواهده ضمن الاستعارة بالكناية.

ولعل أول من اتهم (السكاكي) بإنكاره (المجاز العقلي) العلامة (القزويني)، حيث يقول: "وأنكر (السكاكي) وجود المجاز العقلي في الكلام، وقال: الذي عندي نظمه في سلك الاستعارة بالكناية، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي، بواسطة المبالغة في التشبيه على ما عليه مبني الاستعارة، كما سيأتي، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة للاستعارة.

وبجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم، وجعل نسبة الهزم إليه قرينة للاستعارة"[١].

ثم ينتقد (القزويني) رأي (السكاكي)، وعبارته في ذلك، هي: "وفيما ذهب إليه "السكاكي" نظر:

١- لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة في قوله تعالى: (فهو في عيشة راضية)[٢] =صاحب العيشة لا العيشة، وبماء في قوله: (خلق من ماء دافق) فاعل. فاعل الدفق لا المني، لما سيأتي من تفسيره للاستعارة بالكناية.

٢- وأن لا تصح الإضافة في نحو قولهم: فلان نهاره صائم وليله قائم؛ لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه، وإضافة الشيء إلى نفسه لا تصح.

٣- وأن لا يكون الأمر بالإيقاد على الطين في إحدى الآيتين وبالبناء فيهما لهامان، مع أن النداء له.

٤- وأن يتوقف جواز التركيب في نحو قولهم: أنبت الربيع البقل، وسرتني رؤيتك على الإذن الشرعي؛ لأن أسماء الله تعالى توقيفية، وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء.

٥- ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم: (فلان نهاره صائم)؛ فإن الإسناد فيه مجاز، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان؛ لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله

---

(١) الإيضاح، تح: أ.د/ خفاجي: ١/ ١٠١. ط: دار الجيل.

(٢) سورة القارعة: ٧.

على التشبيه، ولهذا عد نحو قولهم: (رأيت بفلان أسدًا، ولقيني منه أسد) تشبيها لا استعارة"[1].

وقد احتدم الخلاف بين العلماء، ما بين مؤيد للسكاكي ومؤيد لاعتراض القزويني عليه.

وقد رد (التفتازاني) و(الدسوقي) و(السبكي)، و(العصام)، وغيرهم على اعتراض (القزويني) على (السكاكي)[2].

وقضية إثبات المجاز العقلي لم يختلف عليها أحد، أما العلامة (السكاكي) فلم ينكره، وإلا لما نصّ عليه وشرح صوره _كما بيّنا، لكنه ارتضى أن يضع شواهده ضمن الاستعارة بالكناية.

وأما نقد (القزويني) وتفنيده كلام (السكاكي) فليس بشيء؛ لأن (السكاكي) لم ينكر المجاز العقلي، كما قال (القزويني)، وما قاله من نقْدٍ يمكن الرد عليه بما قاله (التفتازاني) و(العصام).

رد السعد التفتازاني على اعتراض القزويني :

فقد رفض (السعد) اعتراض (الخطيب) على (السكاكي)، وعقب على فهم (الخطيب لمذهب (السكاكي) في الاستعارة بالكناية بأنه وهم؛

---

(١) الإيضاح، تح: أ.د/ خفاجي: ١/ ١٠٢.

(٢) ينظر تفصيل ذلك في: المطول: ٢/ ٤٠٢. المفتاح: ٢١٩. حاشية عبد الحكيم على المطول: ٢/ ٤٠٢. تجريد البناني على مختصر المعاني للتفتازاني: ١/ ١٩٦. حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: ١/ ٢٦٦. تقرير الإنبابي على تجريد البناني: ١/ ٥٤٤. مواهب الفتاح: ١/ ٢٦٩. المجاز في اللغة والقرآن الكريم، بين الإجازة والمنع، أ.د/ عبد العظيم المطعني: ٣١٥.

لظهور أن ليس المراد بالمنية في قولنا: مخالب المنية نشبت بفلان: السبع حقيقة، بالمراد لكن بادعاء السبعية له، وجل لفظ المنية مرادفًا للفظ السبع ادعاء، وتساءل (السعد)، كيف لا؟ وقد قال (السكاكي) في تحقيقه: بأنا ندعي اسم المنية اسمًا للسبع، مرادفًا له بارتكاب تأويل، وهو أن المنية تدخل في جنس السباع لأجل المبالغة في التشبيه.

وقال (السكاكي) _أيضًا_ المراد بالمنية: السبع، بادعاء السبعية لها، وإنكار أن تكون شيئًا غير سبع(١).

ويتابع السعد كلامه، قائلاً:

إنه حينئذ يكون المراد بعيشة: صاحبها، بادعاء الصاحبية لها، وبالنهار: الصائم، بادعاء الصائمية له، لا بالحقيقة، حتى يفسد المعنى، وتبطل الإضافة.

وأيضًا يكون الأمر بالبناء لهامان، كما أن النداء له، لكنْ بادعاء أنه بانٍ، وجعله من جنس العملة؛ لفرط المباشرة، ولا يكون الربيع مطلقًا على الله حقيقة، حتى يتوقف على السمع؛ إذ المراد به حقيقةً هو الربيع، لكنْ بادعاء أنه قادر مختار، من أجل المبالغة في التشبيه.

وأجاب السعد عما ذكره الخطيب من أن ذِكر الطرفين يمنع أن يكون في الكلام استعارة، لأن وجود الطرفين لا ينافي الاستعارة مطلقًا، بل إذا كان على وجهٍ ينبئ عن التشبيه، سواء كان على جهة الحمل، نحو: زيد أسد، أو لا، نحو: لجين الماء، بدليل أنه جعل نحو قوله: قد زر أزراره على القمر في قول ابن طباطبا:

---

(١) مفتاح العلوم: ١٧٤.

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زر أزراره على القمر

=من قبيل الاستعارة، مع اشتماله على ذكر الطرفين[1].

رد العصام في كتابه (الأطول) على القزويني :

وللعلامة (العصام) في كتابه (الأطول) كلام جيد حول المسألة؛ فقد فصّل القول فيها، وذكر جميع الآراء، وناقش (السكاكي)، و(القزويني) في رأيهما.

وحاصل ما قاله (العصام) في (الأطول)[2]: أن (السكاكي) تأثر بكلام الشيخ (عبد القاهر) الذي يرد فيه شُبهة (تشبيه الربيع بالقادر) في المجاز العقلي، وقد ردّ (السكاكي) صور المجاز العقلي وشواهده إلى الاستعارة بالكناية، وقد رد على (القزويني) بأدلة، وحاول (التفتازاني) وغيره الدفاع عن (السكاكي)، بمناقشة (الخطيب) في أدلته، أما (العصام) فقد كان بارعًا في عرض القضية برمّتها، وقد ناقش (القزويني) و(السكاكي) في رأييهما.

---

(١) مجلة اللغة العربية بالمنوفية، العدد الرابع، ١٤٠٤هـ، ص٢٩٤، بحث نشره الدكتور/ إبراهيم على داوود في المجاز العقلي. وينظر: حاشية الفنري على المطول: ٢٠٨. والبلاغة التطبيقية، د/ أحمد موسى، ص ١٩٠، ١٩٦٣م.

وينظر: المطول، ص٦٥_٦٧. ويراجع: استدراكات السعد على الخطيب في المطول، دراسة بلاغية تحليلية، د/ أحمد هنداوي هلال، ص٨١، مكتبة وهبة.

(٢) ينظر تفصيل ذلك في: الأطول، تحقيقًا ودراسة، للباحث د/ عبد المنعم رزق، دكتوراه: ٢/ ٥١٦.

رأي أستاذنا الد كتور محمد شادي :

يقول أستاذنا الدكتور/ محمد شادي في سبب نظم (السكاكي) (المجاز العقلي) في الاستعارة: "وقد استقى (السكاكي) فكرته تلك من قول (عبد القاهر): والنكتة أن المجاز العقلي لم يكن مجازًا؛ لأنه إثبات الحكم لغير مستحقه، بل لأنه أثبت لما لا يستحق تشبيهًا، وردًّا له إلى ما يستحق.

ويقول: فلما أجرى الله _سبحانه_ العادة أن تورق الأشجار، وتظهر الأنوار في زمان الربيع، صار يتوهم في ظاهر الأمر، ومجرى العادة كأنه لوجود هذه الأشياء حاجة إلى الربيع، فأسند الفعل إليه"(١).

ويعلق أستاذنا على ذلك، بقوله: "لقد كان حريًّا بـــ(عبد القاهر) و(السكاكي) حمل هذا الإسناد على حقيقته، لما فيه من البناء على العرف _كما صرح (عبد القاهر)، أو التسامح بناء على جريان العادة في إسناد الفعل إلى ما له تأثير في وجوده كالربيع"(٢).

وأيا ما كان الأمر فإن (السكاكي) لم ينكر المجاز العقلي _كما صرح هو بذلك، لكنه نقل صوره إلى الاستعارة بالكناية، تقليلاً للأقسام من ناحية، وضبط المسألة من ناحية أخرى.

دراسة المجاز العقلي في علم البيان ورأي القزويني :

أما دراسة المجاز العقلي في علم البيان، فيقول (القزويني) مدافعًا عن ذلك: "إنما لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان

(١) أسرار البلاغة، ص٣٥٦، ٣٩٩. مفتاح العلوم، ص٤٠١.

(٢) أساليب البيان والصورة القرآنية، أ.د/ محمد شادي، ص٣٤٥.

كما فعل (السكاكي) ومن تبعه، لدخوله في تعريف علم المعاني دون تعريف علم البيان"[1].

الرد على القزويني :

ويكفي في الرد على (القزويني) نص جيد، ذكره أستاذنا العلامة: أ.د/ محمد شادي، في كتابه (أساليب البيان والصورة القرآنية)، حيث يقول سيادته: "أكثر علماء البلاغة يدرجون المجاز العقلي في (علم المعاني) بالنظر إلى أن التجوز فيه ليس لغويًّا، وإنما يقع في الإسناد، أو في النسبة عمومًا، فهو صورة من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وقد جرى كل الدراسين المحدثين على هذا، لكني رأيت بعد طول تأمل أن اعتبار المجاز العقلي من البيان أولى من اعتباره من المعاني؛ للأسباب الآتية:

١_ أنه وإن كان التجوز فيه من جهة العقل وفي الإسناد، والتصرف في المجاز اللغوي من جهة اللغة، فإن الأخير لا يتبين نوع التجوز فيه إلا من خلال التركيب والتأليف.

فنحو قوله تعالى: (واسأل القرية التي كنا فيها)[2]، لا يتبين المجاز المرسل _وهو مجاز لغوي في القرية، إلا بالنظر إلى وقوع السؤال عليها، وهذا ذاته مما يجعل احتمال المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية قائمًا، حيث وقع الفعل على غير ما الأصل أن يقع عليه، والحال كذلك في الاستعارة المكنية.

(١) الإيضاح للقزويني، تح: د/ خفاجي: ١/ ١٠٣.

(٢) سورة يوسف: ٨٢.

٢_ على أن البحث في المجاز العقلي يكون أولاً من جهة اعتباره مجازًا، أي: وجهًا من وجوه التعبير عن المعنى، وتأتي مراعاة المطابقة لمقتضى الحال تبعًا، مما يجعله بعلم البيان ألصق من علم المعاني، الذي يبحث في أحوال اللفظ العربي، من حيث مطابقته لمقتضى الحال، وهذا هو اتجاه المحققين من علماء البلاغة، كابن يعقوب والدسوقي(١).

وهذا لا يعني _والكلام لسيادته_ أن المجاز _عقليًّا أو لغويًّا_ لا تُعتبر فيه تلك المطابقة، وإنما يعني _كما يذهب العلامة (الشربيني) في كتابه (فيض الفتاح)، أنه لا يبحث أصالة من هذه الجهة، فالأصل في بحثه أن يكون من ناحية أنه وجه من وجوه التعبير عن المعنى، وتأتي المطابقة بعد ذلك تبعًا، فتكون مطابقته بلاغة(٢).

ومع ذلك فإن المجاز العقلي صورة من صور الإبانة عن المعنى بطريقة مؤثرة؛ إذ يستوعب أدق المشاعر ويبرزها في صورة موحية، كقوله تعالى _حكاية عن زكريا عليه السلام: (قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر)(٣)، فنجد العدول عن (بلغت الكبر) إلى (بلغني الكبر)، وكأن الكبر يزاحمه، حيث لا يريده، وهذا يشعر بعدم

(١) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي، وحاشية الدسوقي على مختصر المعاني: ١/ ٢٥٥، ضمن شروح التلخيص. نقلاً عن كتاب: أساليب البيان والصورة القرآنية، أ.د/ محمد إبراهيم شادي: ٣٣٦.

(٢) فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، للشربيني: ٢/ ١٥٥، مطبعة مدرسة عباس الأول، ١٩٠٦م.

(٣) سورة آل عمران: ٤٠.

ارتياح زكريا _عليه السلام_ للكبر، خشية أن يكون مانعًا من تحقيق أمنيته[1].

وحاصل القول:

أن (السكاكي) في كتابه (مفتاح العلوم) قد أجاد وأحسن حين وضع (المجاز العقلي) في علم البيان؛ لما قاله أستاذنا الدكتور، على أني لست أدري كيف يكون مجازًا ثم ندرسه في علم المعاني، كما أن (السكاكي) أصاب حين أدرج صور المجاز العقلي وشواهده في الاستعارة بالكناية، خلافًا لجمهور البلاغيين، وإن كان (التفتازاني) و(المغربي) و(العصام) وغيرهم قد أيّدوه فيما ذهب إليه. والله أعلم.

(١) الحوار في القرآن الكريم، تراكيبه وصوره، رسالة دكتوراه، أ.د/ محمد شـــادي: ٢٧٥. وأساليب البيان والصورة القرآنية: ٢٣٧.

الفصل الحادي عشر

إهمال (السكاكي) التفرقة بين الفصاحة والبلاغة

سار العلامة (السكاكي) في منهجه بطريقة منظمة ومنضبطة لم يغيرها، فلم يختل ولم يقصر.

فهو يعلم جيدًا أنه لم يؤلف حاشية أو شرحًا للبلاغة، وإنما _وكما يظهر من اسم كتابه_ قد ألّف مفتاحًا للعلوم، بدأه بالكلام عن الأصوات فالحروف ثم علم الصرف ثم النحو والبلاغة والاستدلال، وختمه بعلم الشعر _على حد قوله.

لكنْ نسي العلماء والنقاد ذلك _أو تناسوا، وكعادتهم لم يتركوا شيئًا إلا ونقدوا فيه (السكاكي)، بدون وجه حق.

فنجد (القزويني) _مثلاً_ يتغافل عن جهد (الجاحظ) و(أبي هلال العسكري) في الفصاحة، ويسقط أهم كتاب أُلف عن الفصاحة، وهو (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي، ويتناسى خطة (السكاكي) وجهده في كتابه، وحديثه الشيّق عن الفصاحة والبلاغة، بل وتطبيق ذلك على النصوص القرآنية.

أقول: نجد (القزويني) يُسقط كل ذلك، ويقول: "للناس في تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة، لم أجد فيما بلغني منها، ما يصلح لتعريفها به، ولا ما يشير إلى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام، وكون الموصوف بهما المتكلم"(١).

(١) الإيضاح للخطيب القزويني، تح: أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجي: ١/ ١٧ وما بعدها.

وعبارة (القزويني) هذه وتجاهله لكل من سبقه، جعلت أصحاب الشروح والحواشي يثورون عليه، كلٌّ يدلي بدلوه، واحتد الخلاف بين مؤيد للقزويني ومعارض، وطال الجدل، ولولا مخافة الإطالة لذكرت ذلك مفصلاً(١).

ولعل كلام (القزويني) هذا جعل شارح (الإيضاح)، الدكتور/ محمد خفاجي، يعلق على ذلك بقوله: "في هذا الكلام شيء من المجازفة: فقد سبق أبو هلال ببيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة في الصناعتين...، وذكر ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني...، وذكر عبد القاهر: أن البلاغة والفصاحة وما يجري مجارها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه...، ويرى ابن الأثير أنه يحتاج في تأليف الكلمات إلى ثلاثة أشياء: اختيار الألفاظ المفردة، ونظم

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في:

مقاييس البلاغة بين الأدباء والفصحاء، د/ حامد صالح خلف الربيعي، ١٠٤٦هـ_ ١٩٩٦م. مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، د/ الشحات محمد أبو ستيت، ط١، ١٤١١هـ_١٩٩١م. الإكسير في علم التفسير، الطوفي البغدادي، تح: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ١٩٧٧م. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح. الأقصى القريب في علم البيان، التنوخي، ط: دار السعادة، ١٣٢٧هـ، تح: أكرم عثمان، بغداد، ١٩٨٠م. الصناعتين، العسكري، تح: البجاوي وأبي الفضل، مطبعة عيسى البابي الحلبي. الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي، ط: المقتطف. المثل السائر لابن الأثير، تح: الحوفي ود/ طبانة، نهضة مصر.

كل كلمة مع أختها...، والغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه"(١).

موقف (السكاكي) من الفصاحة والبلاغة:

ذكر (السكاكي) كلامه عن الفصاحة والبلاغة تبعًا لمنهجه الذي نهجه في (مفتاح العلوم)، فبعد أن ذكر تفصيل الحديث عن علمي (المعاني والبيان) قال: "وإذ قد عرفنا الحقيقة في المفرد وفي الجملة، وعرفنا فيهما التصريح والكناية، وعرفنا المجاز في المفرد وفي الجملة، وعرفنا تنوع الكناية إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، وعرفنا تنوع المجاز إلى مرسل مفيد وغير مفيد، وإلى استعارة مصرح بها ومكني عنها...، وقضينا الوطر عن كمال الاطلاع على هذه المقاصد، فنقول: البلاغة هي..."(٢).

رأي التفتازاني في حديث السكاكي عن الفصاحة والبلاغة :

وقد يتعجب بعض النقاد والبلاغيين من مكان الحديث عن تعريف البلاغة والفصاحة، وقد حاول (التفتازاني) في شرح المفتاح توضيح ذلك وتفسيره، وعبارته هي: "فإن قيل: كان ينبغي أن يتعرض لمعرفة خواص التراكيب على ما هو مضمون (علم المعاني) ليحسن ترتب تعريف البلاغة على ما ذكر؛ لكونه مشتملاً على رعاية مضمون العلمين؟!

(١) الإيضاح للخطيب القزويني، تح: أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجي: ١/ ١٧ ، دار الكتب العلمية.

(٢) مفتاح العلوم: ٤١٥.

قلنا: قد عرفنا هذه الأمور في (علم البيان)، بعد فراغنا من (علم المعاني)، المشتمل على معرفة كيفية خواص التراكيب حقها = وبهذا انتظم أمر الشرط والجزاء، أعني: وإذ قد عرفنا فنقول"[1].

ويقول (التفتازاني) في موضع آخر من شرح مفتاح العلوم: "ولا خفاء في أن المذكور تعريفٌ لبلاغة المتكلم، وأن المراد بالتراكيب: تراكيبه التي يوردها لتأدية المعاني، وبأنواع التشبيه والمجاز والكناية، وما يتفق له في كلامه من تلك الأنواع بمعونة الإحاطة بالعلمين، والتتبع لخواص تراكيب البلغاء، وأنواع تشبيهاتهم ومجازاتهم وكناياتهم.

فقول صاحب الإيضاح: (إن أريد بالتراكيب: تراكيب البلغاء، وهو الظاهر، فقد جاء الدور) =ليس بشيء، وكيف يتصور أن يكون للمتكلم في تأدية المعاني حد توفيه خواص تراكيب غيره من البلغاء، وإيراد تشبيهاتهم ومجازاتهم وكناياتهم على وجهها؟!.

فإن قيل: كيف صحّ قوله: (ولها طرفان)، بعَود الضمير إلى البلاغة المذكورة، وهي بلاغة المتكلم، مع أن هذا إنما هو في بلاغة الكلام؟ قلنا: من جهة أن تعريف بلاغة المتكلم، بحيث يؤخذ منه تعريف بلاغة الكلام؛ وهو كون الكلام بحيث وُفِّي فيه خواص التراكيب حقّها، وأورد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، فكأنه قال: ولها، أعني: ولبلاغة الكلام المعلومة من تعريفنا لبلاغة المتلكم طرفان: أعلى وأسفل، لا يتراءى ناراهما لغاية البعد، وبينهما مراتب، لا يكاد يدركها الحصر؛ لكثرتها، وإن كانت محصورة في نفسها؛ لكونها بين حاصرين،

(١) شرح مفتاح العلوم، للتفتازاني، مخطوط، لوحة رقم: ٣٠١، مخطوط تحت رقم: ٢٣٥٢/ ٥٦٤٩٣. بلاغة.

هما الطرفان، وذلك التفاوت بتفاوت الاطلاع على كميات الأحوال وكيفياتها، والاقتدار على رعاية مقتضياتها، والتصرف في التشبيهات والمجازات والكنايات، وفي إيرادها على وجهها، ولا يتيسر كمال ذلك بمجرد الاطلاع على قواعد العلمين"(١).

وكلام (التفتازاني) هنا في شرحه كلام المفتاح كلام جيّد لمن يتأمله، ويعي ما يريده شارح الكتاب، وتفسيره يفسده؛ لأن الكلام برمته فيه إجابة عن غرض (السكاكي) من حديثه عن الفصاحة والبلاغة، وإيثاره أن يذكرهما بعد تفصيل القول عن علمي (المعاني والبيان).

ولذا نجد (السكاكي) يعرف البلاغة أولاً بقوله: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها"(٢).

فمعرفة خواص التراكيب هي علم المعاني، والباقي من التعريف (علم البيان)، وهذا يفسر لنا سر تأخيره تعريف البلاغة.

ولا عبرة بما قاله بعض البلاغيين _وهم كثر_ من أن (السكاكي) أخطأ حين أخر الحديث عن البلاغة والفصاحة، كما أنه لم يفرق بينهما؛ لأنه ما كان للسكاكي وفق منهجه إلا أن يؤخر الحديث عنهما، كما هو واضح.

---

(١) شرح مفتاح العلوم، للتفتازاني، لوحة رقم: ٣٠١.

(٢) مفتاح العلوم: ٤١٥.

ولذا نجد (السكاكي) بعد أن عرّف البلاغة يقول: "ولها أعنـــي: البلاغـــة، طرفان: أعلى وأسفل، متباينان تباينًا لا يتراءى له ناراهما[١].

وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة، وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه به في صدر الكتاب، من أصوات الحيوانات، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة، إلى أن تبلغ حد الإعجاز، وهو الطرف الأعلى، وما يقرب منه.

واعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن، يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة[٢]، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين"[٣].

إذن فالغرض الرئيس من دراسة البلاغة عند (السكاكي) هو الإعجاز القرآني، كما أدرك ذلك أستاذنا أ.د/ فوزي السيد عبد ربه، من ذي قبل في كتابه القيم: (إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي).

وبعد أن تحدث (السكاكي) عن البلاغة، وعرف بها، والغرض من دراستها، والأدوات التي لا مفر من معرفتها؛ حتى يتمكن أن يصبح المتكلم بليغًا =نجده يُعرف بالفصاحة _أيضًا، ويضع للحصول عليها شروطًا عدة،

---

(١) يقول شارح المفتاح، العلامة الشيرازي: "قول السكاكي (ناراهما)، هذا اللفظ ذكره النبي _صلى الله عليه وسلم_ في آخر حديث، في بيان إظهار البون والبعد بين المؤمن والكافر.

_شرح المفتاح للشيرازي: ١١٠٦.

(٢) يعني بذلك: الشيء المليح الجميل المميز.

(٣) مفتاح العلوم: ٤١٦.

تأثر في بعضها بالجاحظ وابن سنان الخفاجي. وإليك عباراته، حيث يقول، بعد أن عرّف البلاغة: "وأما الفصاحة فهي قسمان: راجع إلى المعنى، وهو خلوص الكلام عن التعقيد. وراجع إلى اللفظ، وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية، وعلامة ذلك: أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور، واستعمالهم لها أكثر، لا مما أحدثها المولدون، ولا مما أخطأت فيه العامة. وأن تكون أجرى على قوانين اللغة. وأن تكون سليمة عن التنافر"(١).

وحتى يتضح لنا خطة (السكاكي) ومنهجه في كتابه، لا مفر من العودة إلى نص كلامه، حيق يقول: ""وإذ قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها، مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة، كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام"(٢).

لاحِظ أن الغرض الرئيس من الفصاحة والبلاغة هو التحسين، بل إن الغرض الرئيس من علمي المعاني والبيان، وهذا واضح من كلام (السكاكي).

و(السكاكي) بعد أن عرّف البلاغة والفصاحة، وشرح الغرض منهما، نجده يُطبق ما قاله على كتابه، حيث يقول: "وإذ قد وقفت على البلاغة وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آية، أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين ما عسى

(١) مفتاح العلوم: ٤١٦.

(٢) مفتاح العلوم: ٣٢٣.

يسترها عنك، ثم إن ساعدك (الذوق) أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها"[1].

ثم يقول: "وهي قوله _علَت كلمته: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين)، والنظر في هذه الآية من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني، وهما مرجعا البلاغة، ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية"[2].

يقول (السكاكي) بعد ذلك محللاً الآية من الجهات الأربع: "أما النظر فيها من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول:...، وأما النظر فيها من حيث علم المعاني، وهو النظر في فائدة كل كلمة منها، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها، ذلك أنه...، وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذاك...، ثم ختمت القصة بما ختمت، هذا كله نظر في الآية من جانب البلاغة.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى، نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها مُلخّصة مُبِينة، لا تعقيد يعثر الفكرة في طلب المراد، ولا التواء يشيك الطريق على المرتاد، بل إذا جربت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها، فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك إلا ومعناها أسبق إلى قلبك.

---

(١) مفتاح العلوم: ٤١٧.

(٢) مفتاح العلوم: ٤١٧.

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة، جارية على قوانين اللغة سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات، سليسة على الأسلات، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة.

ولله در شأن التنزيل، لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر، ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت؛ لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان، وأن لا علم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه"(١).

والملحوظ أن (السكاكي) ذكر في تحليل الآية الكريمة الغرض من دراسة القسم الثالث في كتابه، وهو (علم المعاني، وعلم البيان، والفصاحتان، والبلاغة، ووجه الإعجاز القرآني).

ولذلك يمكن القول أن قوله السابق: "وإذ قد تقرر أن الفصاحة بمرجعيها": (المعاني والبيان).

وأن "الفصاحة بنوعيها": (اللفظ والمعنى). كل هذا في خدمة قضيةٍ واحدة، هي قضية (الإعجاز القرآني)، ولعل قضية (التحسين) التي بنى عليها (السكاكي) كتابه، وأدرج فيها الوجوه المخصوصة التي ذكرها هي أساس كتاب (مفتاح العلوم)، الذي عالج فيه قضية الإعجاز القرآني.

---

(١) مفتاح العلوم: ٤١٩ وما بعدها.

إن من يقرأ كتاب المفتاح جيّدًا، يدرك قيمة هذا العمل، وقيمة صاحبه، وغرضه من تأليفه، والقضايا التي عالجها (السكاكي)، والسبب في تقديم بعض الأبواب على بعض، وإيثار بعضها دون بعض، لكنّ كل هذا يحتاج إلى قراءة جيدة لكتاب (مفتاح العلوم)، وقراءةٍ لفِكر صاحبه.

خاتمة

وبعد

فهذه بعض الافتراءات والاستدراكات والمآخذ على كتاب (مفتاح العلوم) للعلامة السكاكي ، شملت الكتاب برمته ، فلم يترك أصحابها شيئا إلا وتتبعوا فيه السكاكي وكتابه .

فقد استدرك بعض البلاغيين علي كتاب السكاكي اضطراب منهجه ،وضعف أسلوبه ، وخلو كتابه من الاعتماد على الذوق في دراسة الفنون البلاغية ، بل وصل بهم الأمر إلى اتهام صاحب المفتاح بالخطأ في اللغة ، وغير ذلك كثير مما هو مبثوث في ثنايا البحث .

ولعل هذا – وكما قلنا من ذي قبل _ نتيجة اعتماد بعض البلاغيين على كتابات غيرهم ،والسير وراء ما قالوه ، دون تفحص كتاب المفتاح ودراسته دراسة جيدة .

ولو فعل هؤلاء ذلك – وليتهم فعلوا – لانقلب كلامهم ونقدهم إلى مدح وإلى التغني بكتاب المفتاح للعلامة السكاكي .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

دكتور / عبد المنعم السيد الشحات رزق

الأستاذ المساعد ورئيس قسم البلاغة والنقد

بدمياط الجديدة جامعة الأزهر

ثبَت المصادر والمراجع

أولاً المطبوعات:

١_أساليب البيان والصورة القرآنية، أ.د/ محمد شادي.

٢_استدراكات السعد على الخطيب في المطول، دراسة بلاغية تحليلية، د/ أحمد هنداوي هلال، مكتبة وهبة.

٣_إعجاز القرآن ونظمه عند السكاكي، أ.د/ فوزي السيد عبد ربه، ص٧٤، ط١، ١٤٠٩هـ_ ١٩٨٩م.

٤_الأقصى القريب في علم البيان، التنوخي، ط: دار السعادة، ١٣٢٧هـ، تح: أكرم عثمان، بغداد، ١٩٨٠م.

٥_الإكسير في علم التفسير، الطوفي البغدادي، تح: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، ١٩٧٧م.

٦_الإيضاح، تح: أ.د/ خفاجي. ط: دار الجيل.

٧_بغية الإيضاح، للشيخ: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط١٩، ١٤٣٨هـ.

٨_البلاغة التطبيقية، د/ أحمد موسى، ١٩٦٣م.

٩_البلاغة المفترَى عليها – دكتور / فضل عباس

١٠_ البلاغة بين عهدين، د/ محمد نايل، ط: دار الفكر.

١١_ البلاغة عند السكاكي، د/ أحمد مطلوب – ماجستير – بغداد.

١٢_ البيان العربي، د/ بدوي طبانة، ط٧، ١٩٨٨م.

١٣_ تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، أحمد مصطفى المراغي، ط: مصطفى البابي الحلبي.

١٤_ تجريد البناني على مختصر المعاني للتفتازاني

١٥_ تقرير الإنبابي على تجريد البناني .

١٦_ حاشية الدسوقي على مختصر المعاني

١٧_ حاشية الفنري على المطول – مخطوط .

١٨_ حاشية عبد الحكيم على المطول .

١٩_ الحوار في القرآن الكريم، تراكيبه وصوره، رسالة دكتوراه، أ.د/ محمد شادي.

٢٠_ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، تح: د/ النبوي عبد الواحد شعلان. وينظر: تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح.

٢١_ شرح أسرار البلاغة، وكتاب شرح دلائل الإعجاز، لأستاذي: أ.د/ محمد إبراهيم شادي، ط٢، ١٤٣٤هـ_٢٠١٣م، دار اليقين للنشر والتوزيع، المنصورة.

٢٢_ الصبغ البديعي، د/ أحمد إبراهيم موسى.

٢٣_ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي، ط: المقتطف.

٢٤_ فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح، للشربيني، مطبعة مدرسة عباس الأول، ١٩٠٦م.

٢٥_ كتاب الصناعتين، العسكري، تح: البجاوي وأبي الفضل، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٢٦_ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ): ١/ ن، ط: دار الريان للتراث، رتبه وضبطه: مصطفى حسين، الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ_ ١٩٨٧م.

٢٧_ المثل السائر لابن الأثير، تح: الحوفي، ود/ طبانة، نهضة مصر.

٢٨_ المجاز في اللغة والقرآن الكريم، بين الإجازة والمنع، أ.د/ عبد العظيم المطعني.

٢٩_ المسكوت عنه في التراث البلاغي، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط١، ١٤٣٨هـ_٢٠١٧م.

٣٠_ المطول للتفتازاني .

٣١_ مفتاح العلوم للسكاكي، ط مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٤١١هـ_١٩٩٠م. ودار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٧هـ_١٩٨٧م.

٣٢_ مقاييس البلاغة بين الأدباء والفصحاء، د/ حامد صالح خلف الربيعي، ١٠٤٦هـ_ ١٩ص٩٦م.

٣٣_ مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، د/ الشحات محمد أبو ستيت، ط١، ١٤١١هـ_١٩٩١م.

ثانيا :الرسائل العلمية والدوريات الحولية

١_ الأطول، تحقيقًا ودراسة، د/ عبد المنعم رزق، دكتوراه.

٢_شرح مفتاح العلوم للسيد الشريف، (المصباح)، تح: أ.د/ فريد محمد بدوي النكلاوي.

٣_شرح مفتاح العلوم للشيرازي، تح: أ.د/ نزيه فراج.

٤_علم البديع وموقف السكاكي ومدرسته منه، الفصل الثاني، ص٧٦٥، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، مجلة علمية محكمة، العدد الثامن والعشرون، المجلد الثاني.

٥_مجلة اللغة العربية بالمنوفية، العدد الرابع، ١٤٠٤هـ، بحث نشره الدكتور/ إبراهيم على داوود في المجاز العقلي.

ثالثا : المخطوطات:

١_شرح الفوائد الغياثية، طاش كبرى زادة، مخطوط، تحت رقم: ٣٨٨٠/ ١٩٢١. ٤٩٦ بلاغة.

٢_شرح مفتاح العلوم لحسام الدين المؤذني الخوارزمي، مخطوط تحت رقم: ١٤٩/ ٤٣٦٠.

٣_شرح مفتاح العلوم للتفتازاني، مخطوط، مخطوط تحت رقم: ٢٣٥٢/ ٥٦٤٩٣ بلاغة.

٤_شرح مفتاح العلوم، لابن كمال باشا، المسمى: تغيير المفتاح، تحت رقم: ٥١٠٧/٨١٩٣.

٥_شرح مفتاح العلوم، للأردبيلي، تاج الدين تبريزي، أبو الحسن، علي بن عبد الله الأردبيلي، مخطوط تحت رقم: ١٠٩٣٧/٧٠٣.

٦_ شرح مفتاح العلوم للعلامة / يحي بن أحمد الكاشي تحت رقم ١٦٥ بلاغة

٧_مفاتيح مغلقات المفتاح، للشيخ محمد الرومي القلم بكي، مخطوط نادر، تحت رقم: ٩٧/ ٢٩٨٥، بلاغة.

فهرس الآيات القرآنية

م	الآية	اسم السورة	رقم الآية
١	قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)	آل عمران	٤٠
٢	وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)	يوسف	٨٢
٣	وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)	النور	٤٥
٤	إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)	يس	١٤-١٦
٥	فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)	القارعة	٧

فهرس الموضوعات

م	الموضوع
١	المقدمة
٢	التمهيد
٣	الفصل الأول: منهج السكاكي في كتابه ونقده
٤	الفصل الثاني: نقد أسلوب (السكاكي) في كتابه
٥	الفصل الثالث: إهمال (السكاكي) للذوق، وعدم الاعتماد عليه في كتابه
٦	الفصل الرابع: السياق ومقتضى الحال، وعدم الاعتماد عليها عند السكاكي
٧	الفصل الخامس: تقعيد البلاغة، وحصرها في قوالب جافة
٨	الفصل السادس: قلة الشواهد البلاغية عند السكاكي، واعتماده في كتابه على الأمثلة المصنوعة
٩	الفصل السابع: تذييل البديع علوم البلاغة لأنه عرضي
١٠	الفصل الثامن: السكاكي والإعجاز القرآني
١١	الفصل التاسع: النظم القرآني في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي
١٢	الفصل العاشر: إنكار السكاكي للمجاز العقلي
١٣	الفصل الحادي عشر: إهمال (السكاكي) التفرقة بين الفصاحة والبلاغة
١٤	الخاتمة
١٥	ثبَت المصادر والمراجع

١٦	فهرس الآيات القرآنية
١٧	فهرس الموضوعات